موكا سيتي

سيرة ذاتية للبن اليمني

سمير محمد

موكا سيتي

سيرة ذاتية للبن اليمني

رواية

WWW.anaweenbooks.org
info@anaweenbooks.org
/anaweenbook

يمنع طباعة أو تصوير هذه المطبوعة أو أجزاء منها، أو حفظها أو نسخها على الوسائط الإلكترونية من غير موافقة مسبقة من الناشر

العنوان: موكا سيتي (سيرة ذاتية للبن اليمني)
المؤلف: سمير محمد
المقاس: 14 × 20 سم
الطبعة الأولى: 2022
إخراج فني: القباني للكتابة والتنسيق

الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن وجهة نظر الكاتب ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار

حقوق الطبع محفوظة

عناوين BOOK
رقم الإيداع بالهيئة العامة للكتاب – حضرموت:
2022 / 307

المخا في القرن السابع عشر الميلادي (زمن الراوية)

سفينة شراعية هولندية من القرن السابع عشر الميلادي (زمن الرواية)

المكتب الهولندي في المخا..

سكون لطيف بينما الشمس ترسل خيوطها الضوئية المعتدلة في أواخر كانون الأول على مدينة المخا؛ حيث تحولت رمال البحر إلى مرآة ضخمة تعكس هدايا الشمس والأمواج، تبعث بسلامها على الرمال الذهبية، وكلما بعثت سلاماً عادت إلى موطنها في عمق البحر لترسل غيرها بسلام آخر. وغير بعيد عن الشاطئ المتخم بالقوارب والسفن تصطف منازل المدينة البيضاء كأنها ثغر حسناء تزينه أسنانها اللؤلؤية. وعلى جدار أحدها كان «مارك» يقف بجانبه صديقه البريطاني «سايمون» أمام مبنى شركة الهند الشرقية يتجاذبان أطراف الحديث عندما لفت نظرهما امرأة تمر في الزقاق الضيق بجانب المبنى رفقة عبد أسمر البشرة. كانت المرأة تلبس لفافة بيضاء وتغطي وجهها ببرقع خفيف. لم تستطع العباءة ولا البرقع أن يغطيا ملامح الجمال في القوام وفي العينين الواسعتين كأنهما سماء المخا الممتد بلا حواجز ولا مدى. ورغم وجود العبد الذي يسير خلفها إلا أن المرأة كما يبدو مستمتعة بمشاهدتهما وهما يراقبانها، فأبدت بعضاً من الدلال والتغنج رغم قلته إلا أنه كثير في مدينة لا تخرج نساؤها للتسكع في الشوارع، وبعد مرور المرأة كان «مارك» يركز في نقطة أخرى

حين قال:

- ذلك الفتى مع الحمار هناك، قادم من منطقة جبلية

- غريبة!

- ماهو الغريب في فتى جبلي؟!

- الغريب هو أن شخصاً جاء من أكثر الأراضي انخفاضاً في أوروبا يتحدث عن القادمين من الجبال اليمنية في مدينة المخا

- هل تراهنني على هذا؟

- لن أقول نعم يا «مارك» حتى تخبرني كيف عرفت؟!

ابتسم «مارك» ثم قال:

- القادمون من الجبال تأتي أكتافهم مائلة إلى الأمام قليلاً على عكس سكان السهول أو السواحل فهي تأتي مرتفعة ومستقيمة من الجوانب - لا أعتقد أنها صفة سائدة لدى الجميع

- بكل تأكيد هي كذلك ولكنها تختلف من شخص لآخر حسب بنيته وطبيعة جسده..

كان صديقه يتأمل في الفتى فواصل مارك حديثه قائلاً:

- إذا ذهبت إلى ساحل البحر فستجد الصيادين ومرتادي البحر من زوار المدينة الذين يأتون لبيع محاصيلهم هنا وسوف ترى بنفسك دقة ملاحظتي.

- أهذا يعني أنك مخترع هذه الملاحظة العبقرية؟!

- أجل، ستكون نظريةً تنافس نظرية «نيوتن» التي نشرها قبل بضع

سنوات.

كان يبتسم وهو يتحدث ثم التفت إلى صديقه «سايمون» متسائلاً:

- ماذا أسمى نظريته تلك بما أنك إنجليزي؟!

- على ما أتذكر قانون الجذب العام. منذ عشر سنوات وقارتنا الأوروبية ليس لها حديث سواه.

اعتدل «سيمون» في جلسته وهو يواصل حديثه قائلًا:

كان مارك منهمكًا بمراقبة الفتى الذي كان يرتدي سترة عادية من قطعتين هما قميص وإزار يصل إلى مادون ركبتيه بقليل، لكنهما نظيفتان تنسقان ملامحه الوسيمة المرفهة التي لا تعكسها طبيعة عمله. لم يكن يحمل عصا يضرب بها الحمار كعادة أصحاب الحمير في هذا العالم الكبير بل كان يسير بخطوات سريعة إلى جانب الحمار ويده على عنق الحمار وبين فينة وأخرى كان يداعب عنق الحمار بأصابع يده.

وجد نفسه ينهض؛ مودعاً صديقه، ومشيراً له بيده إشارة تعني مواصلة الحديث في وقت آخر، ثم يسير متتبعاً الفتى تاركاً بينهما مسافة كبيرة حتى رآه يتجه إلى نهاية الطريق، قريباً من باب «صندل» حتى وصل إلى وكالة الحاج أيوب العريقي التي يقع بها منزله- كعادة معظم تجار المخا- فقام الفتى بالتوقف وربط الحمار قبل أن يدلف إلى داخل الوكالة، ولأن لدى «مارك» علاقة صداقة وعمل مع الحاج فقد وجد الفرصة سانحة

للدخول والتحدث مع الحاج دون أن تكون له رغبة حقيقية في معرفة الفتى، سوى دافع الفضول ليس إلا، لهذا ما إن وضع قدمه في داخل الوكالة حتى قام بالسلام على الحاج بلغته العربية المفهومة على كل حال فرد عليه الحاج سلامهُ بأفضل منه، بينما كان يتحدث إلى شخصين بملابس رثة يبدو أنهما من سكان المناطق المرتفعة. وقد أدرك مارك من كلامهما مع الحاج أيوب أنهما يملكان كمية كبيرة من البن ويريدان بيعها، بينما كانا يسترقان النظر إلى «مارك» بين فينة وأخرى وهما يستفسران من الحاج عن عدد الأجانب في المخا من الأوربيين والهنود وعن جنود الحاكم وحجم الوكالات التجارية. كانت أسئلتهما كثيرة عن كل شيء في المخا إلا عن البن، ويبدو أن الحاج قد ضاق ذرعاً بأسئلتهما.

انتبه مارك من أفكاره وملاحظاته حول الرجلين على صوت الحاج أيوب وهو يقول له متسائلاً:

- يبدو أنك جئت تستفسر عن موعد وصول حمولات البن الجديدة من الحجرية؟!

أخذ مارك يبحث بعينيه عن الفتى وهو يرد على الحاج قائلاً:

- امممم.. في الحقيقة نعم يا حاج، ولكني أيضاً أريد إخبارك أن موعد سفينتنا القادمة من «باتافيا»(*) على وشك الوصول وهي تحمل الشاي والقصب والخزف والحرير والأرز والقرنفل والعود، كما أننا سنحتاج

(*) التسمية الهولندية الأولى لمدينة «جاكارتا» عاصمة إندونيسيا عند تأسيسها من قبلهم على أنقاض معبد قديم.

لبعض المواد لتموين السفينة قبل مغادرتها، كما درجت العادة

هز الحاج رأسه دلالة الثقة والتمكن، في نفس الوقت الذي كان الفتى قد أنهى عمله - على مايبدو- وأخذ يقف إلى جانب الحاج الجالس على منصة خشبية مرتفعة.

- هل هذا ولدك يا حاج أيوب؟!

ابتسم الحاج وهو يربت على كتف الفتى النحيل، وهو يقول:

- هذا صابر.. إنه مثل ولدي تماماً

كان صابر قد سلم على الحاج وخرج من الوكالة، فما كان من مارك إلا أن تبعه بعد توديعه للحاج، واستطاع اللحاق بخطوات صابر السريعة مع خطوات الحمار الذي أصبح ظهره فارغا.

- صابر! قالها مارك بلهجة فرائحية وكأنه يمهد له طريق التواصل ببساطة، فلاحظ الفتى وهو ينظر إليه بخجل وترقب وهو يقول:

- نعم!!

ثم أردف بلهجة واثقة:

- وأنت ماهو اسمك؟!

- مارك

- حياك الله!

- تعجبني هذه الجملة، في اليمن تختصر الكثير من عبارات المجاملة والتحية، من أين أنت؟!

- أنا من يافع

- يافع؟!

- نعم إنها على مسير ثمانية أيام من هنا.

كان صابر يشير بيده باتجاه الشرق عكس اتجاه البحر الممتد على يسارهم وهو يتحدث عن منطقته، فقال «مارك» باستغراب:

- أوه، إنها بعيدة! ما الذي أتى بك إلى هنا؟!

لاحظ «مارك» ملامح حزن ارتسمت على وجهه الذي مازال طفولياً بقسماته الوسيمة، لكنه سرعان ما تخلص منها وهو يقول بنفس نبرة الثقة السابقة:

- لا شيء، إنه الرزق والبحث عن العمل.

- هل لديك أقارب هنا؟!

- هل تعرف عمي؟

كانت ملامح صابر قد تحولت للغضب مع احمرار خديه؛ لهذا فقد سارع بالقول:

- هل يعمل عمك هنا في المخا؟

تجاهل صابر السؤال، ليبادر متسائلاً بدوره:

- ماذا تريد مني؟!

- لا شيء، لقد رأيتك تقود حمارك إلى وكالة الحاج أيوب وأعجبتني طريقتك في التعامل مع الحمار، فأحببت أن أتعرف عليك

- هاقد تعرفت عليّ!

- مهلا يا فتى، أقسم لك بأني لا أريد منك أي شيء قبل التعرف عليك
- وبعد التعرف عليّ ماذا تريد؟!

ابتسم «مارك» لفطنة الفتى وبديهيته الحاضرة فقال:

- لنجلس معا في أي مقهى ونتحدث

- لا بأس، ولكني سأذهب إلى صديقي «سوراجي» لصرف بعض العملات، وبعد صلاة العصر نلتقي عند مقهى «بيرا البانياني» بالقرب من جامع الشاذلي ونرى مالديك

- صدقني كل خير

- سنرى ولكن إذا أتاني عمل فسوف أغادر.

-

قام بإخراج قطعتين معدنيتين من كيس مربوط في خصره وناولها إلى صابر الذي غادر مبتسماً وراضياً بعد أن استلم مايقارب أجرة يوم كامل من «مارك» نظير ساعة أو ساعتين بالكثير. وبعد الصلاة كان صابر قد جاء إلى المقهى يبحث عن مارك حتى وجده لوحده فجلس أمامه على نفس الطاولة، وقال وهو يتلفت في المكان:

- هذه المرة الأولى التي أجلس فيها في مقهى في المخا، بل وفي كل حياتي.
- مازلت صغيراً يا صديقي،

- لطالما استغربت من فكرة المقهى ماهي الفائدة منها وكيف أقامها البشر؟!

- في العالم فكرتها حديثة لا تتعدى بضعة عقود، لكنها تقليد لفكرة

- نعم.. أنا أقصد عندنا، ما دخلي بالعالم!.

- يا صديقي الصغير هذا العالم كله مترابط، ما يحدث في قريتك يؤثر في مكان ما في منطقة بعيدة. تخيل أن القهوة التي تنتجها قريتك الصغيرة في يافع كانت سبباً في حدوث فوضى في لندن قبل أربع وعشرين عاماً، عندما أمر الملك تشارلز الثاني بإغلاق ثلاثة آلاف مقهى بسبب نشرها للفوضى والإشاعات والثورات- كما يدعي- وهي نفس الأسباب التي جعلت السلطان العثماني محمد الرابع يأمر بغلق المقاهي في وقت متقارب مع «تشارلز»، وقبلهما السلطان مراد الرابع الذي أمر بإعدام بعض أصحاب المقاهي ومتعاطي القهوة، وهذا يثبت سطوة القهوة وانتشارها.

بدأ الاهتمام على وجه صابر، مما جعله يتابع بحماس- بعد أن أحضر صاحب المقهى كوبين من قهوة القشر لهما- وهو يتأمل في «مارك» ويحاول تكوين انطباع أولي عله يستشف منه نوايا «مارك»، الذي وجده طويلاً وعريض المنكبين وبجسد ممشوق يشبه التماثيل اليمنية السبئية، بينما كان أكثر شيء ملفت فيه هو عيناه، رغم لونهما البني المائل إلى الأخضر، إلا أن رموش عينيه وحاجبيه تمنحه هيبة؛ حيث يخيل للناظر من بعيد أنه لايملك رموشاً وحواجبَ بسبب لونها الأشقر الفاتح كما هو لون شعره الطويل الذي يلامس كتفيه مع خطوط بيضاء خفيفة تتشكل بين الخصلات. وبينما هو يتأمل قال مارك:

- المقاهي لشرب القهوة نشأت من هنا لديكم بكل تأكيد، ربما هي

المقابل لفكرة حانات الخمور كما أخبرتك، فالقهوة هي المقابل الحلال للخمر في اليمن.

ثم مال باتجاه صابرو سأله قائلاً:

- هل كنت تعلم أنهم حرموا القهوة في بعض بلدان المسلمين مثل مكة والمدينة والقاهرة واسطانبول؟!

ظهرت الدهشة على وجه صابر وهو يقول بسخرية:

- لماذا؟! إنها حلال.. جدتي تشربها..

ضحك مارك لدعابته فقال له:

- الإنسان دوماً عدو ما جهل يا صديقي، وكل جديد محل حذر وريبة.

كان صابر- كما هو الانطباع الأول الذي كونه «مارك» عنه - من النوع الذي يستمع أكثر مما يتكلم، لكنه أيضاً ليس من النوع الذي يصدق كل ما يسمع، يمتاز بطول فارع وملامح وسيمة وعينان تدلان على الذكاء الثاقب؛ لهذا فقد أراد مارك مفاتحته فيما يريده فقال له:

- لنبدأ حديثنا الذي أخبرتك به..

أظهر صابر اهتمامه بإنزال يديه وتركيز نظره دون أن يتكلم، فواصل «مارك» الكلام:

- لقد أعجبتني طريقتك اليوم وأنت تقود حمارك بطريقة لطيفة

- نعم، «لبيب» بمثابة صديقي

- من هو لبيب..؟

- أنا أتحدث عن الحمار!

- حماري.. الحمار الذي كان معي اسمه لبيب..

أخذ مارك في الضحك، قبل أن يقول:

- نعم حمارك «لبيب»! بالإضافة لإشادة الحاج أيوب بك- وهو من النوع الذي لا يتعامل مع أي شخص- إلا إن كان شخصياً جيداً، هناك أيضًا مظهرك الجميل، لذا أريدك أن تعمل معنا.

برقت عينا صابر؛ وهو يقول مستفسرًا:

- وماذا أعمل لديكم؟!

- لدينا في مقر الشركة الهولندية أعمال كثيرة ونحتاج إلى موظفين محليين، وستكون أنت مرافقي، ومساعدي.

- هل تقصد كخادم أو عبد؟!

كان التذمر مع خيبة الأمل واضحين في ملامحه وهو يتحدث، لكن مارك بادره قائلاً:

- بالتأكيد ستكون مرافقاً، أنت لا تملك الخبرة ولا المعرفة؛ حتى تصبح رئيساً.. أنا أيضاً لست الرئيس هنا؛ لأن هناك من هو أكثر خبرة مني، رغم أني عملت في «سيلون» والهند و«جاوة».. أنا أعمل لدى الشركة منذ عشرين عاماً يا عزيزي، ولو كنت أريد عبداً لذهبت لشراء أحدهم من مدينة بيت الفقيه.

أبدى صابر بعض الاقتناع وهو ينصت إليه فاستطرد هو:

- ستكون مرافقي في كل مكان أذهب إليه، ولن تفارقني إلا وقت النوم، وسيكون أجرك مربحاً كأجر شهري من الشركة، ومني شخصيا.. لن أبخل

عليك بشيء..

سكت مارك لوهلة من الوقت، ثم قال لصابر:

- هل تعلم بأننا بعد معاناة وخبرات طويلة وأموال ضخمة وسفن ضخمة عابرة للمحيطات وفي المناطق التي اكتشفناها، وجدنا اليمنيين فيها هم سادة تلك المناطق أو تجارها بمجهودات فردية

- حقا؟!

- نعم.. في شرق أفريقيا من أقصاه إلى أدناه، وفي «سيلون» والهند وشرق آسيا

- جميل جدا، لكن كيف تقول بأنكم اكتشفتم تلك المناطق، فهل كانت خالية من الناس؟!

- لا توجد أرض خالية من البشر في عموم الأرض، ولكنه مصطلح أوروبي نرجسي بعض الشيء.

كان مارك يشعر ببعض الحرج والتوتر وهو يجيب صابراً على سؤاله، ثم أشار لصابر بيده إشارة تعني (ماهو قرارك؟).

وبعد تفكير سريع قال صابر:

- موافق! ماعدا أوقات الصلاة، وكذلك بين المغرب والعشاء سأكون في المسجد أستمع لدروس المشائخ.

- لايوجد لدينا عمل في المساء عادة، ماعدا جلسات التخطيط وتدبير أمور العمل، وهذا لا يعنيك في البدايات. نحن نحترم كل الأديان، فلدينا عمال مسلمون من هذه البلاد وغيرها وكذلك من «البانيان»: الهندوس

واليهود، والجميع يودي عبادته بكل حرية.

- إذن اتفقنا

- ما رأيك بالقهوة؟!

- طيبة، ولكن القهوة في بلادي أطيب. يبدو أن البن في بلادي أطيب.

هز مارك رأسه موافقاً وهو يشرب من كوب القهوة الذي بيده؛ راسماً ابتسامة رضا على ملامحه الشقراء.

في اليوم التالي كان صابر قد جاء مبكرًا بعد صلاة الفجر في المسجد القريب، حتى قبل أن ينهض مارك من منامه صباحاً، وظل ينتظره أمام مقر سكنه حتى أفاق مع السادسة ليجد «صابراً» بانتظاره أمام السكن ليأخذه ويذهبان إلى مقر الشركة. كان مبنى الشركة من الياجور الداكن كعادة البيوت في المدينة ومكون من أربعة طوابق وعليه لوحة مكتوب عليها بالحروف اللاتينية «VOC». وهنا قال له مارك:

- مرحباً بك في مقر شركة الهند الشرقية الهولندية أكبر شركة تجارية في العالم وربما في تاريخ البشر

- ماهو هذا المكتوب هنا؟

- الأحرف الثلاثة من اسم الشركة باللغة الهولندية « Vereenigde Oostindische Compagnie»

كان صابر يستمع فاغر الفم، لكن «مارك» ربت على كتفه وقال:

- في غضون عام ستتعلم لغتنا وستكون هولندياً بقلب يمني.

بدت الحماسة على صابر، وهو يتبع مارك إلى داخل الشركة حيث يرتفع

«بورتريه» متوسط الحجم لرجل.. وقف أمامها صابر متأملًا حينما أتى مارك ووقف إلى جواره ثم قال:

- هذه لوحة للسيد «بيتر فان دن بروك» وهو أول هولندي يزور اليمن والجزيرة العربية في السابع عشر من أغسطس عام 1614م. عندما وصل على متن السفينة «ناسو» كان هناك أكثر من ثلاثين سفينة هندية وفارسية وعربية في الميناء.

قطع مارك حديثه واضعاً كفه على كتف صابر وهو يسأله:
- حتما أنت تعرف الفارق بين التاريخ الهجري الإسلامي والميلادي الأوروبي، بما أنك تعيش وتعمل في مدينة «كوزموبوليتانية» عالمية ومتنوعة الأعراق والأديان مثل المخا.

صمت قليلاً قبل أن يواصل حديثه:

- التقويم «الغريغوري» أو الميلادي هذا مازال حديثاً، ولم يعمم في كل أوروبا، حتى أن مناطق هولندية - خصوصا في المناطق الشمالية- لم تستخدمه بعد، لكن في الأخير سيستخدمه الجميع بسبب انضباطه التاريخي.

هز صابر رأسه- كدلالة على الفهم- فواصل مارك حديثه قائلًا:
- «بيتر فان دن بروك» هو أول هولندي يشرب القهوة وينقلها معه إلى أوروبا، لكن أول مكتب تأسس هنا كان في 1618م بعد أخذ التصاريح من السلطان العثماني في إسطنبول إثر استلام مبالغ طائلة، والمصنع تأسس بعدها بعامين، لكن بعد طرد الأتراك عام 1635م أصبحنا نزور المخا

بشكل مستمر بعد ذلك بثلاث سنوات، ثم خضعت الأمور حسب العرض والطلب، والأوضاع بين توقف واستمرار، لكننا قبل عامين من الآن استأنفنا نشاطنا هنا كما تعرف بعد فترات مد وجزر وانقطاع وعودة خلال الثمانية العقود الماضية.

انحنى بعدها «مارك» بطريقة مسرحية كدلالة على الترحيب الأوروبي وهو يقول:

- وها أنت ذا بيننا يا سيد صابر

ثم مشيا معا إلى أحد المكاتب، فقال وهو يشير إليه:

- هذا مكتب السيد «نيكولاس فليترز» رئيس فرع الشركة في المخا وهو أول رئيس للشركة بعد استئناف النشاط وقد أقنعته بأن تعمل لدينا حيث أن المقيمين هنا من الهولنديين قلة كما تعلم، وهذه مكاتب بقية الموظفين المقيمين والمؤقتين، وسوف تتعرف عليهم جميعاً.

- ماهي طبيعة عملي يا مارك؟!

- مبدئياً ستكون مرافقي حتى تتمكن من فهم طريقة العمل، وحينها سأمنحك بعض المهام في المدينة والميناء، ثم عليك أن تسكن معي في المنزل

- هل يوجد لديك مكان لوضع «لبيب»؟!

أخذ مارك يقهقه بصوت عالٍ، لدرجة لم يتمالك نفسه معها وسط ذهول صابر، ثم أخذ يحاول التحدث قائلاً بلهجة تشبه الأمر

- عليك أولًا القيام ببيع لبيب، فلست محتاجاً له بعد اليوم، لدينا الكثير من الحمير والخيول والعربات.

ثم تذكر مستطرداً، فقال:

- اسمع، سوف نشتري منك حمارك لبيب لعمالنا في الميناء، لقد رأيته قويًا وبصحة جيدة.

- نعم.. لبيب أقوى حمار في المخا، لم أكن أبخل عليه بالأكل، ولكني سأفتقده فقد كان صديقي في الغربة

قال مارك مبتسماً:

- يبدو أنك ستقتلني من الضحك بحديثك عن لبيب، سنتحدث بجدية منذ الآن، ثم قام بإخراج بعض النقود وناولها إلى صابر: - هذه قيمة لبيب وأظنه سعر جيد، أحضره معك غدًا واعطه للعم صالح حارس المبنى وإذا اشتقت إليه اذهب وقابله حيث يكون، ولنبدأ العمل منذ اليوم.

في نفس المساء كان صابر على موعد مع إحياء إحدى ليالي الذكر في جامع الشاذلي بين صلاتي المغرب والعشاء من قراءة القرآن والأذكار، وإنشاد الموشحات الصوفية..الجميع غارق في خلوته الذهنية حتى كأنهم قد خرجوا من هذا العالم الأرضي إلى عالم سماوي ناءٍ وهم يكبرون حيناً وينشدون حينا، وكان هو بينهم يتردد بين تأملاتهم وبين السفر معهم في عوالمهم الروحية، خصوصاً حين ينشد معهم ابتهالات المناجاة الإلهية المختلفة:

«أتوبُ إليك في صدقٍ إلهي

فكمْ لي عنكَ يا رحمنُ لاهِ

تعاظمت الذنوبُ على فؤادي
وَأعلتْ شهوتي فوق انتِباهي
وإنّي واحدٌ من أصل طينٍ
تماهتْ في طبيعتهِ المَلاهي
فُتبْ، ياربُّ إني مُستَجيرٌ
فمن إلاكَ يَغفرُ لي التَّماهي»

أو حين يرددون المدائح النبوية التي تزيد من ولع الذاكرين وترفع من درجة توحدهم بالعوالم الروحية فتظهر على أصواتهم حشرجات البكاء والصفاء وهم ينشدون بلا توقف أو كلل. وبعد صلاة العشاء بساعة ذهب صابر إلى الشيخ طه الشاذلي، واستأذن منه للانصراف وطلب الدعاء والمغفرة بسبب رغبته بالانصراف مبكراً، فنصحه الشيخ بالإخلاص والاتقان في العمل الذي هو بحد ذاته عبادة أمرنا الله بها، فالله تعالى يقول: «وجعلنا النهارَ معاشاً»، ويقول عليه الصلاة والسلام: «ما أكل أحد طعامًا خيرًا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده»، وكان الأنبياء عليهم السلام أصحاب مهن وحرف يعولون بها أنفسهم وعوائلهم، والطريقة الشاذلية هي من أكثر طرق المتصوفة حثاً على العمل الذي لا يتعارض مع التوكل، وإسقاط التدبير، لما له من تعمير الأرض والسعي. أذن له بالانصراف دون أن يشغل عقله الصغير بأقوال المشائخ في العمل والحث عليه، فأمامه يوم عمل جديد وأمام العابدين ليلة عبادة وذكر والجميع في عبادة وذكر.

في هذا الوقت الروحاني وفي أجواء رجب الروحانية كان المسجد عامرًا بصلاة المؤمنين وابتهالاتهم وروحانيتهم، ماعدا شخص واحد يأتي ويصلي وينتحي جانباً في أحد زوايا المسجد لقراءة القرآن، كان رجلاً في العقد السابع من عمره، دائماً مايلفت نظر صابر بهدوئه وبخشوعه في صلاته وتلاوته للقرآن. عرف صابر بأنهم يسمونه مطلق النجدي نتيجة لإقامته في نجد ودراسته للعلوم الدينية على المذهب الحنبلي لسنوات طويلة، والشيخ طه يحب صابراً كثيرًا لشخصه وحبه للصالحين، ومواظبته على الصلوات كما أنه يحبه لأنه من يافع؛ حيث أخبره الشيخ عن مجموعة من اليافعيين من آل سلّام أنهم قد عمروا هذا المسجد حباً في الشيخ علي بن عمر الشاذلي وبنوا عليه قبته الكبيرة ومنارته الرائعة وكذلك الضريح، وقد منّ الله عليهم بالقيادة والقبول وأصبح بعضهم من قادة الإمام في عدن ولحج وماحولها. وكان صابر يعرف أن آل سلام ينتمون إلى قبائل «كلد» من يافع(*).

نام صابر ليلته تلك على أمل صغير ينمو في أحشائه كجنين صغير بعد عامين عاشهما في المخا وسط المعاناة والجحود والتضييق عليه، لم يحلم ليلتها بشيء، فكل مايريده من الأحلام قد شغل تفكيره قبل النوم «فما تفكر به بوضوح لن تحلم به؛ لأن الأحلام هي ترجمة العقل الباطني، لذا فهي تأتي دائما مبهمة بحاجة لفك طلاسمها.. »

(*) آل سلام من يافع منطقة كلد، ومنهم سلاطين لحج العبدليين، وربما يكون هم من عمروا جامع الشاذلي لأن فترة ظهورهم في لحج وعدن حكاماً للأئمة متقارب.

يقيم «مارك» في منزل من الياجور ومطلي باللون بالأبيض كأغلب منازل المخا وهو مكون من طابقين مع فناء أمامي صغير، ويطل على البحر مباشرة غير بعيد عن قلعة طيار التي تشرف على الساحل وكان صابر يرى السفن والقوارب وهي ترسو أمام الميناء أو حين تتحرك عند الوصول والمغادرة، وقام مارك بإعطائه حجرة من حجرات المنزل الصغيرة كعادة المنازل اليمنية التقليدية التي تخلو من البهو الداخلي وفي المنزل فوجيء بجاريتين شابتين تتوليان أعمال المنزل حينما دلفا إلى الفناء ناداهما «مارك» فأقبلتا إليه فقال موجهاً حديثه إلى صابر:

- إنهما فتاتيّ الجميلتين هذه «مزنة»..

وكان يشير إلى فتاة بيضاء بشعر بني ليس بالكثيف، ثم أشار إلى الفتاة الأخرى قائلاً:

- وهذه السمراء الساحرة «روجا»، أليستا جميلتين؟!

كان صابر في الحقيقة يشعر بالخجل وهو ينظر إليهما، لكنه قال متسائلاً وهو ينقل بصره بينهما:

- هل هما من المخا؟!

- في الحقيقة لا، «روجا» كانت معي منذ أن كنت أعمل في «سيلون» التي تسمونها أنتم «سرنديب» أما «مزنة» فقد منحني إياها الإمام محمد المهدي عندما كان يلقب بالمنصور في رداع حيث عاشت منذ صغرها في قصره، وجدها كان ضابطاً تركياً تم أسره في معارك الإمام القاسم مع الأتراك، وأهداني أيضاً بعض الخناجر اليمنية الجميلة أنا ومن معي

بسبب سعادته بالعائد المالي الذي حصل عليه من الضرائب والكثير من الهدايا.

قام «مارك» بضم فتاتيه إليه وقال:

«روجا» باللغة السنهالية تعني الزهرة ومزنة باللغة العربية تعني السحابة الممطرة، ماذا يحدث إذا اجتمع الزهر والمطر يا صديقي؟..

- الرائحة الزكية والمنظر الجميل؟!

- لا.. مايحدث هو أن «مارك» يشعر بالحب.

ثم مال بوجهه إلى الأمام وهو لا يزال يحتضنهما:

- إياك أن تقترب منهما، هذا تسمونه في اليمن العار والشرف.

وعندما لاحظ دهشة صابر. أخذ يقهقه بكل قوة وهو يسير إلى المنزل؛ مشيرًا إليه بأن يتبعه إلى الداخل لتناول وجبة العشاء. ونتيجة الإرهاق والحماسة بعد يوم عمل طويل وجديد بالنسبة إليه، سقط صابر في النوم بمجرد أن وضع جسده النحيل على السرير الحصيري التهامي، مع أضواء خافتة تتسلل من ثقوب الروشان الخشبية.

كان الظلام حالكاً، وكانت عينا صابر تتحركان ببطء تحت لحاف جفنيه كأنهما طفلان رضيعان يلعبان بهدوء، وكلما زادت حركة عينيه ارتفع صوت تنفسه في ترابط تام.

في الحقيقة كان صابر مسافراً في عالم مختلف لم يستطع الإنسان أن يكشف ماهيته رغم أنه استطاع استكشاف كل شيء، وتضاعفت حجم الأراضي البشرية مع اكتشاف الأراضي الجديدة، وأصبح بإمكانه أن

يسافر من أقصى الأرض إلى أدناها في شهور معدودة.

يرتدي صابر لباساً أوروبياً كقبطان هولندي مع خصلات من شعره الذي أصبح كستنائيا وطويلاً، وظفيرته طويلة تتدلى خلف ظهره أسفل قبعته الزرقاء الداكنة التي يرتديها قباطنة البحار عادة، وبينما هو يتأمل نفسه وملامحه أدرك أنه يتواجد في حجرة بيضاء واسعة، وعلى الجدران عقود متناسقة غير مفتوحة ولا يوجد في الحجرة أي نافذة، وفي آخر الحجرة يوجد لوح رخامي باللون الرمادي، يعكس أضواءً غامضة غير موجودة بالحجرة لكنها لا تنتشر في الحجرة. وبعد تردد طويل اقترب صابر من اللوح الرخامي بخطوات وئيدة وهو مدرك بأنه في عالم اللاوعي، لكنه لايستطيع رفض تحركاته أو اتخاذ موقف آخر، وبمجرد أن أصبح أمامه شاهد نفسه بشكله الجديد، وهو مدرك بأن هذا اللوح الرخامي ربما يكون المرآة التي سمع عنها سابقا. أخذ يتأمل في نفسه ويلاحظ ملامحه وهو معجب بوسامته وتناسق جسده لكنه حزن لرؤية شعره، ولم يكن راضياً عن لونه، ويتحسر على لون شعره الأسود القديم. وفي تلك اللحظة قام برفع ذراعيه ليجدهما مشوهين بشكل بشع، رغم أنه يستطيع تحريكهما بكل سهولة. وفي تلك اللحظة لاحظ انعكاساً أصفرَ على اللوح الرخامي يظهر خلفه، فاستدار بسرعة ليجد شخصاً بديناً يرتدي لباسًا أصفرَ يغطي كامل جسمه من الأعلى إلى الأسفل حتى أصابع يديه، ماعدا فتحتين صغيرتين تُظهران عينيه، وفي إحدى يديه سيف كبير يقطر دمًا. وفي لحظة واحدة رفع السيف إلى الأعلى بطول ذراعيه وبدا كأنه توقف بهذا الوضع لفترة طويلة قبل أن يهوي ببطء بالسيف تجاه رأس صابر الذي أخذ

يصيح وهو يحتمي بذراعه اتقاء للسيف.

في تلك اللحظة التي صرخ فيها صابر، نهض جالسًا فوق سريره وهو يلهث بشدة والعرق يتصبب منه بغزارة رغم اعتدال الجو، بينما هو لا يزال يشعر بأنه باقٍ في الحلم، رغم إدراكه بأنه كان يحلم، وهو أمر غريب وعلاقة ترابطية عجيبة تظهر قدرة العقل على مزج الخيال بالواقع وكيف يتلاعب بالمرء وينقله لعوالم أخرى، بينما هو نائم في مكانه بلا حراك، لم يستطع التحرك من مكانه وعبثاً حاول العودة إلى النوم بينما أنفاسه لا تزال متسارعة عجلى كأنها خيول سباق تتلاحق على ساحل المخا أيام الأعياد، وبينما هو مغمض العينيين منطوٍ على نفسه كقنفذ صغير دون أشواك. حان آذان الفجر- وهو ماكان ينتظره لإخراجه مما هو فيه، وليس هناك أفضل من دعوة الله لعباده - ينساب في كحل الليل وفي أشد أوقاتها عتمة ليطمئن كل المخلوقات بأنه رحيم بعباده رؤوف بالخائفين، جابر للأوابين إليه من قلق الظلام وانبعاث النوم وعجز البدن واستكانة الكسل. نهض من نومه وسار إلى المسجد ليبدأ يومه الحقيقي وينتهي عالمه الموازي الوهمي.

بدأ العمل مع مارك في الشركة الهولندية. وللأمانة فقد كان مارك شخصاً رائعًا ومحبًا للجميع ومتواضعاً كما هم كل موظفي الشركة من الهولنديين الذين كانوا بمثابة نخبة المدينة، فكل مافي المدينة مرتبط بهم لكن مارك كان مختلطاً بالجميع ربما لإجادته اللغة العربية وملامحه الودودة، وقد كان صابر لا يفارقه سوى في أوقات النوم، وكان يمنحه

الحرية في حالة عدم وجود عمل في الذهاب للمسجد لأداء الصلاة أو حضور جلسات الذكر التي يحييها المشائخ على الطريقة الشاذلية. وبما أن الصوفية هم المذهب المنتشر في المخا والمناطق المجاورة في عموم اليمن باستثناء بعض المناطق الجبلية باتجاه صنعاء، فقد كان من الضروري وجود صابر كموظف في الشركة لإضفاء طابع اجتماعي خفي وسط الجموع من المحليين، وإن كان الجميع يتقبل الغرباء منذ مايقرب من تسعة عقود مضت، عاشت المدينة خلالها فترات جذب بين نفوذ تركي أو نفوذ يمني، مابين حكام محليين أومن الأئمة القادمين من جبال الشمال والمتحمسين للحكم كلما سيطروا على صنعاء، لكن الجميع كان يتسامح مع الأوروبيين طالما يستلمون منهم الجزية. وعندما نتحدث عن الأوروبيين فالحديث هنا عن الهولنديين، وتحديدا شركة الهند الشرقية الهولندية التي كان الفضل في إيصال البن إلى أوروبا. وكان «مارك» يحاول توضيح الصورة باستمرار في ذهن صابر وأهمية موقعه كموظف يمني في شركة كبرى تقود العالم، وكان السيد «فليتزر» رئيس المكتب قد أعطاهم تعليمات مشددة بالعمل والجدية استعدادًا لوصول السفينة القادمة من «باتافيا» وتجهيز البضائع والأموال واستلام بعض البضائع القادمة من الصين وجاوة وسيلان من مختلف البضائع التي يشتريها اليمنيون، وقد لاحظ صابر انهماك السيد «فليتزر» بالعمل وإعداد الحسابات، حيث أصبح منشغلا لدرجة أن أعماله أصبحت إدارية بحتة لا يكاد يخرج سوى لمنزله حيث تقيم زوجته السيدة «أماليا» وهي سيدة جميلة في عقدها الخامس من عمرها بشعر أحمر وعينين خضراوين وجسد ممتلئ، وقد

شاهدها مرات عدة سابقا وهي تتجول في أنحاء المدينة مع ابنتيها «كارولينا» و«آنا» اللتين تشبهانها لحد كبير، وفي بعض الأحيان كانت تتجول مع بعض النساء الأوروبيات المتواجدات في المخا رفقة أزواجهن لكن السيد «فليتزر» كان أرستقراطيا بشكل مبالغ به، فهو لا يتحدث إلا مع الشخصيات المهمة وذات القيمة كحاكم المدينة، نيابة عن الإمام الذي يعتبر أثرى أثرياء المدينة. وكان السيد «فليتزر» على عكس «مارك» الذي هو أقرب لقبطان متجول تعود على المغامرة والتنقل، لكن البحر ألقاه على اليابسة، فقرر أن يتأقلم على حياة البر حتى يأذن له البحر بالانطلاق مجددا، لذا فهو دائماً سعيد ومنفتح على الجميع. ولم يكن صابر يعلم أن عمل مارك مع الشركة الهولندية ليس رسمياً، وإنما جاء بطلب خاص من السيد «فليتزر» فوافق مكتب الشركة في «أمستردام» على هذا بعد الإلحاح المتكرر منه، وربما كان السبب هو إكمال ما ينقصه من مواصفات في شخصية مارك المرح والإجتماعي والذي يجيد رسم الخرائط والأشخاص والعلاقات.

في أحد الأيام في مقر الشركة كان صابر يتأمل في لوحة لإحدى السفن الضخمة على أحد جدران الشركة فقال له مارك:

ـ هذه السفينة «ناسو» أول سفينة هولندية تصل إلى اليمن تحديداً في في 17 أغسطس 1614م وكانت إلى عدن بقيادة «بيتر فان دن بروك» الذي أخبرتك عنه في اليوم الأول لعملك هنا عندما شاهدت لوحته عند المدخل.

التفت صابر إليه وقال له باهتمام:

- ماهو سر اهتمامكم بالبن؟

- هناك عدة أسباب يا صديقي الصغير، لكن البن بشكل عام يؤثر على العقل بطريقة إيجابية ويبعث على الراحة، وكل مايفعل هذا يكون محل إقبال من الناس؛ فما بالك بالقهوة التي تريح العقل دون أضرار كالخمر والتبغ والحشيش والأفيون على سبيل المثال، واليمنيون ثم المسلمون رأوا فيه المقابل خمراً حلالاً، كما أخبرتك، والأوروبيون رأوا فيه فرصة نقية للجلوس وسط الناس والاجتماع بهدوء في أوقات النهار. ونحن نتاجر بكل شيء ينتجه الشرق، ليس فقط البن الذي استطاع أن يسحر الرجل الأوروبي فأصبح طقسًا يوميًا يمارسونه ببساطة، وبالتالي سلعة مضمونة الأرباح.

كان مارك يجلس على كرسي مكتبه الخشبي المطرز بالعاج والزخارف النباتية المصنوع في القرى التهامية القريبة من المخا، ويشتريها التجار من مكة ومصرو غيرها. نهض وهو يواصل حديثه متجولًا في أنحاء الحجرة كأنه يقدم عرضاً مسرحياً سردياً:

- المال هو السر في كل شيء، ونحن نبيع كل شيء، ونعرف ماينتجه كل بلد فنحصل عليه، وما يحتاجون إليه فنحضره لهم.. نحن جعلنا هذه الأرض قرية كبيرة.. تخيل أننا نبحر لمدة أشهر لكي نبيع لكم ماينتجه أناس في آخر الأرض لا تعرفونهم ولا يعرفونكم.. لم يسبق للأرض أن شهدت هذا الترابط كما نصنعه نحن.

كان صابر يستمع باهتمام كبير مختلط بالدهشة وهو يسأل منبهراً:

- كيف تستطيع الإلمام بكل هذا؟

- أنا أعمل مع أكبر شركة في العالم ولدينا أرشيفاً ضخماً لكل المواد التي نتاجر بها وللأراضي التي نستورد منها، ونقوم بتسجيل كل شيء، ونبعث به إلى مقر الشركة في «أمستردام» ويجب عليك أن تتعلم كل هذا، فأنت تنتسب لهذا الكيان العريق.

- هل لديكم مقاهٍ في هولندا

- نعم، لكنها تأخرت، على العكس من بلدان أخرى، ونحن أول من أدخل أشجار البن إلى أوروبا لكنها لم تنجح.

- حقا؟!

- نعم قام السيد «بيتر فان دن بروك» في عام 1616 بإدخال شتلات البن من المخا وزرعها في حديقة أمستردام النباتية في بيوت زجاجية من أجل مواءمة الطقس، وقبل بضع سنوات من الآن زرعنا أشجاره في سيلون(*) وجاوة والهند- حيث كنت أعمل- لكن الأشجار ضعيفة وتحتاج إلى الوقت- على أية حال- ولكن إذا قدر للقهوة أن تستمر في الانتشار وأن تصبح المشروب الأول في هذا العالم فستكون شركتنا هي صاحبة الفضل في نشر البن في العالم كله، وفي جعل القهوة تملك هذا الإدمان الرائع، ولن يكون إنتاج اليمن كافيًا لتغطية هذا الإدمان.

اتجه «مارك» إلى باب المكتب وقد أمسك معه يد صابر، ساحباً إياه معه للخارج حيث اتجه إلى خارج الشركة عندما سأله صابر مستفسراً:

(*) سيلون: سيلان وسرنديب من أسماء سيرلانكا التاريخية.

- لماذا تحاولون زراعته في مناطق أخرى، ألا يكفي الإنتاج هنا في بلادنا؟!
- نحن نريد ضمانة تدفق الإنتاج بلا انقطاع..بلادكم كافية حالياً، ولكن صعوبة تضاريس المناطق وعدم سيطرتنا عليها يجعلنا نخشى الأيام القادمة، ونحن منذ أن جئنا إلى هنا في عز سيطرة الأتراك على اليمن ونحن نحاول نقل زراعة البن إلى خارج اليمن، وسوف ننجح في يوم ما، بطبيعة الحال.

في أحد الأيام التالية بينما كان صابر في حجرته في المنزل بعد العصر جلس في حجرة الروشان المطلة على الشارع الجانبي في حجرته وقد كان جهزها بفراش صغير يجلس عليه مستمتعاً بنسمات الهواء المعتدلة القادمة من البحر في هذا الوقت من العام، وبينما هو ينظر إلى الشارع من خلال تشاريب الخشب أمامه إذْ شاهد ظلاً في الفناء الخلفي للمنزل المجاور لهم والذي لايبعد أكثر من مترين.. كان الظل يبدو أنه لامرأة لكن صاحبته لم تظهر بعد بسبب اختلاف الزاوية بين المنزلين، فعلى مايبدو أن المرأة كانت تستبرد.. انتبه صابر لخطئه فاستغفر ربه ثم عاد إلى جلسته محاولًا نسيان صاحبة الظل..

حاول مراراً دفع نفسه لعدم إعادة النظر تجاه الشارع، لكن الوساوس داخله أقنعته بإرسال نظرة فلا يعدو أن يكون ظلاً، ولا إثم في رؤية الظل. وبمجرد أن التفت شاهد امرأة فتية تتجول في أنحاء الفناء وهي ترتدي درعًا هندياً مطبوعاً من القطن بأكمام قصيرة وجيب دائري واسع يظهر جزءاً من أعلى صدرها وعنقها، وبينما هي تتجول جلست أمام الجدار المواجه لنافذته فوق سرير من الخوص؛ حتى تحتمي من أشعة

الشمس التي بدأت تميل إلى الاحمرار.

كان كل ما حولها رمادياً أو بنيًا في الفناء. ومع ضوء الشمس بدا بياض ذراعيها وعنقها وأجزاء من ساقيها ملفتاً للنظر بشكل كبير، وكأنها هي مصدر هذا الضوء، مثل فانوس صنعاني أنيق يضيء من غير نار. ومازاد في بهائها هي واجهة المنزل الخلفية البيضاء التي تقوم بامتصاص ضوء الشمس وإرساله عليها بتشتيت ناعم وساحر، وهي على حالها.. كما يبدو كانت تحدث شخصًا لا يظهر في مجال رؤيته وهي تضحك حيناً وتصمت أحياناً، وكلما ضحكت كان الضوء يزداد في المكان.

كانت المرأة منشغلة بنفسها تارة ترفع أسفل درعها إلى ركبتيها، وتارة تقوم بجذبه من جهة الجيب، مرة للأعلى ومرة للأسفل بشكل بسيط، بينما هو يشاهد مذهولًا جمالها وجرأتها، غير المألوفة بالنسبة إليه، وهو القادم من قرية جبلية كل سكانها أقاربه وأصهاره، ولم يكن يشاهد- وهو الطفل الصغير- من النساء سوى ما يشاهده عابر طريق مر بنساء يتجهن إلى الوادي لجلب الماء من البئر. بدأ يستشعر خطأه واستغراقه في الذنب حين تذكر بأنها في منزلها، وهو المتلصص عليها ومن تجرأ على حرمها المصان ومعبدها المقام، وكلما حاول أن يعود إلى وضعه حدثته نفسه بالاستمرار في طريق المتعة البصرية، وهو لا يعدو أن يكون نظرًا كإثم صغير لن يقود إلى ما هو أكبر، طالما أنه يستحيل عليه الوصول إلى تلك المرأة الماكثة في بيتها وأسرتها، وهي لا تعرف بأنه ينظر إليها، وبكل تأكيد لا تعرف بوجوده حتى.

أصبحت الشمس في مستوى الأفق أمامه تماماً بأشعتها الطويلة

الحمراء التي تخترق ثقوب «الروشان» على عينيه مباشرة، بينما هي أصبحت تستمتع باعتدال الهواء حولها، وهي تتحرر من كل ملاصقةٍ للدرع القطني على جسدها المعتدل، فتقوم بإبعاده عن جسدها بين فينة وأخرى بأطراف أصابعها ثم ترسله، وهكذا تفعل في أماكن متفرقة، وعندما يعود الثوب بملاصقة جسدها كان يظهر بعضاً من مفاتنها الناضجة كمنحوتات مصفوفة من العاج الأبيض، وكلما بدأ الضوء يصبح باهتاً في أجواء المخا؛ تمعن بها أكثر، حتى أصبح دون شعور منه ملاصقًا لجدار الروشان الخشبي من الداخل وهو يحاول أن تكون كل عين منه في فتحة من فتحات الخشب أمامه. أما هي وكأنها تحاول الاستمتاع لآخر مرة بهواء المغربية. قامت بالاستلقاء على السرير مستندة على يدها بينما كان الدرع منحسرًا إلى مافوق ركبتيها وهي على هذه الوضعية. كان يستحضر في ذهنه قول الشاعر الذي يصف هذا المشهد كأنه يراه معه:

«نامت على يَدِها والخدُّ يختصرُ
حكاية الشمسِ خلفَ الغيمِ تستترُ
لو كنتُ في الجو عصفورًا لطرتُ لها
آوي إلى ضوئها لكنَّني بشرُ
كأنَّها في المدى ترتاحُ في نظري
أرنو إليها وكّلي دونها نَظَرُ
فيا ابنةَ الضوء نامي إنَّني يقظٌ
في غفوة الشمسِ يأتي العشقُ والسهرُ.. ».

ومع انخفاض مستوى الرؤية بشكل كامل نهضت المرأة حين أتت فتاة سمراءُ صغيرة تساعدها في النهوض، فما يبدو أنها جاريتها التي كانت تحادثها ولم يكن يراها. وبينما هو ينظر إليها مشدوداً بكل جوارحه رفعت رأسها وهي تسير إلى جهة «الروشان»(*) الذي يقف خلفه وكأنها تراه، ثم غابت في جدار المنزل الذي لم يكن ظاهراً له بتاتا.

أصابته رعشة خوف فظيعة حين أدرك أنها كانت تعرف بوجوده خلف الشباك، وكان الخوف مضاعفاً من أن تشتكي لرجال منزلها، ثم يعود لطمأنة نفسه بأنها لا يمكن أن تراه، فثقوب هذا الشباك لا تكشف عما خلفها، وإن كانت تعرف فلماذا استمرت بالجلوس أمامه؟! واستمر هكذا يغوص في حوض الاحتمالات ونقيضها وما يشبهها، حتى انتبه إلى أن صلاة المغرب فاتته في المسجد لأول مرة منذ أن وعى، فتحول الخوف في نفسه إلى لومها، وهكذا يفعل الذنب الجديد في قلب العبد. وبقدر استغراقه وقتاً طويلًا في استراق النظر عليها دون أي فائدة فإن وصف المشهد بكل تفاصيله من أجل اللوم هو امتداد آخر لإضاعة الوقت.

بعد أن أدى صلاة المغرب في المنزل على عجالة، ذهب إلى الجامع لصلاة العشاء مبكراً ووجد الشيخ طه يلقي دروسه على مريديه الدائمين؛ فجلس في آخر المجلس يقرأ القرآن وهو لا يزال يستشعر ذنبه، وبعد صلاة

(*) روشان: هي المشربية في بلدان عربية أخرى وموجودة في المعاجم العربية تحت أصل الكلمة رشن وتقول العرب الروشن أي الكوة وهي الخرق في الحائط أو الثقب في البيت ونحوه.

العشاء ذهب إلى الشيخ، وبعد السلام عليه قال له بحرج:

- أذنبت اليوم يا شيخي الفاضل

- نعم.. أعرف.

فوجئ صابر برد الشيخ ودارت في ذهنه الأفكار بأن المرأة اشتكت له أو أنه يعرفها، وحين أدرك الشيخ ذلك قال له مطمئناً:

- عندما يخطئ العبد الصالح يشعر بالندم، ويصاب بالخجل حين تراه عيون الناس، والله يحب العبد أن يستغفره كلما أذنب؛ فيجعله يتمادى بالذنب حتى يستغفره

- لقد كنت في حجرتي حينما...

قاطعه الشيخ طه قائلا له بهدوء:

- لا تخبرني بشيء

ثم نهض وهو يقول مواصلاً حديثه:

- إياك أن تخبر بذنبك لأحد، فالذنب كالسر إن جاوز صاحبه شاع، وشيوع الذنب ترويج له بين الناس.

وبينما هما يسيران استطرد الشيخ قائلاً:

- شعورك بالذنب شيء جيد، لكن ماهو أفضل أن تستشعر حلاوة التوبة بدلًا من التفكير في إثم المعصية، والتفكير بالذنب هو ذنب آخر قد يضيع عليك أيامًا من أجر التوبة وأنت مستغرق بالتفكير به. ويكفيك من الذنب إثم وعقوبة، وتكفيك بالتوبة رحمة الله والوجد به. وعليك أن تدرك بأن ذنبك مهما كان كبيراً؛ فرحمة الله تسع كل شيء، وأن الله يفتح أبواب

المغفرة كلما فتح الإنسان شبابيك المعصية.

لم ينبس صابر بأية كلمة بعد أن وصل الشيخ إلى كلمة الشبابيك مذعورًا، وأخذت تدور في ذهنه كل الاحتمالات والأفكار ولم يعرف حتى كيف وصل إلى حجرته ونام دون أن يكلم أي شخص.

* * *

«نيوتن» والبن اليمني..

مع آخر يوم من شهر جمادى الآخرة أقام «مارك» احتفالا بليلة العام الجديد الذي يوافق الأول من يناير لعام 1699 للميلاد أو كما يسميه «مارك» التقويم «الغريغوري» الذي يحتفل به مع صديقه الهولندي «جيسبرت والبافاري فريديريك» من ميونيخ الذي استبْقاه السيد «فليتزر» من آخر سفينة. وقد فوجئ صابر بأنهم رغم كونهم مسيحيين جميعهم إلا أن «سايمون» وأصدقاءه الإنجليز لايحتفلون بالعام الجديد في هذا التوقيت، بل في 25 مارس؛ حيث الاحتفال السابق في أوروبا، حتى بدأت بعض دول أوروبا بتغييره إلى هذا التوقيت قبل مئة وخمسين عامًا، ومن ضمنها هولندا وفرنسا وغيرها، وقام مارك بتسليم صابر هدية عبارة عن سيف بمقبض عاجي وغمد مصنوع من أخشاب جاوة الفاخرة وصندوق خشبي يحوي مسدساً هولندياً مع بعض الطلقات وهو يخبره بأن الهولنديين هم أول من وزع الهدايا في أوروبا في القرن السابع، رغم تحذيرات البابا آنذاك.

ولأنهم كانوا يشربون الخمور؛ فقد فضل صابر أن يبقى بعيداً عنهم بعض الشيء وهو يستمع إليهم بينما هم يتحدثون ويتبادلون المزاح والضحكات والأحاديث بمختلف المواضيع التي لايربطها عن بعضها شيء،

لكنها لا تخلو من الحديث عن البن بطبيعة الحال مع تفاخر كل منهم ببلده. وقد بدأ الإنجليزي «سايمون» قائلاً، وهو يوجه حديثه إلى مارك:

- كنت قد أخبرتك سابقا عن علاقة «نيوتن» بالقهوة اليمنية،

ثم نهض من مقعده مستفسرًا:

- هل تعلم أن البن اليمني كان خلف أهم اختراع أوروبي في هذا القرن الموشك على نهايته؟

نظر إليه صابر ومارك بنظرة استفهامية مصحوبة بملامح الترقب على وجهيهما، وكذلك جميع الحاضرين، فواصل «سايمون» حديثه:

- هناك عالم في إنجلترا يدعى «إسحاق نيوتن» - كما يعلم معظمكم- قام قبل اثنتي عشر عاماً من الآن تحديداً بنشر كتابه في العلوم الطبيعية، وقد تضمن قانون الجذب العام الذي أثار ضجة في أوروبا..

سأل أحد الحاضرين واسمه «روبير» وهو قبطان فرنسي يعمل مع شركة الهند الشرقية البريطانية:

- ماذا يعني الجذب العام؟!

- قانون يشرح سقوط الأجسام على الأرض ويشرح كذلك حركة الكون من خلال التجاذب و...

قاطعه صابر من بعيد حيث يجلس قائلًا بسرعة:

- لكن الله هو من خلق هذا الكون ويحركه.

فقال «مارك» له بلطف:

- معك حق وأنا مثلك أؤمن بهذا، وسبق أن تناقشت مع شيخ يمني

يدعى سالم في «سيلون» حيث كنت أعمل هناك،

وقد أكد لي هو بنفسه أن الله خلق الكون وخلق القوانين لتسييره فلا يسير بالعشوائية، فهو قانون واحد وقد قرأ علي من القرآن ما يؤكد ذلك وأظنها من سورة الرعد يذكر بها أن الله رفع السموات

- نعم في الآية الثانية من سورة الرعد ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾.

هز «مارك» رأسه موافقاً ثم التفت ناحية «سايمون» وسأله قائلًا:

- ماعلاقة هذا بالبن اليمني؟!

ابتسم سايمون وقال:

- دعني أحكي لك الحكاية: «منذ البداية، قبل خمسين عاما تقريباً في عام 1650م، كان شخص يهودي يدعى يعقوب أسس أول مقهى في أكسفورد» وبعضهم يقول «إن أول مقهى كان في عام 1652م؛ حيث افتتحه شخص يوناني من المقيمين في صقلية يدعى «باسيجو» روسي أول مقهى في لندن

وبما أن صابراً كان مشغولاً بشكل دائم بفكرة المقاهي، وكيف بدأت بذرتها الأولى، فقد فوجه حديثه إلى سايمون قائلًا:

- كيف استطاع اقناع الناس هناك بفكرة المقهى؟

لكن مارك استغل الفرصة لكي يجيب صابر مفتخرًا:

- سؤال مهم يا عزيزي، اليهودي يعقوب كان يعمل خادماً لتاجر

بريطاني يدعى «دانيال إدواردز» يعمل في منطقة «سميرنا» في تركيا ساعد «باسيجو» في إنشاء المقهى وكان يشتري البن من بلادي هولندا، ونحن من نقوم بإرساله من هنا من المخا. أما إقناع الناس بفكرة المقاهي فكان سهلاً؛ حيث أن هناك قوانين عرفية سهلت تقبل الناس لفكرة المقاهي وارتيادها منها تساوي الجميع في المقاهي بدون أية فوارق طبقية بين الناس فالبرجوازي والفقير والمتوسط يحق لهم جميعاً ارتياد المقاهي نفسها

قال سايمون:

- في لندن كانت المقاهي مكاناً ملائمًا لقراءة الأخبار ونشر الشائعات والفضائح وتناول القهوة بالبن اليمني والكاكاو من جزر الهند الغربية والتبغ من فرجينيا، وأصبحت أماكنَ لعقد الصفقات وغرف العمل والاستشارات الطبية

عاد صابر للسؤال عن أول مقهى قائلا:

- هل كان أول مقهىً في أوروبا؟!

أجابه مارك قائلاً:

- لا، ولكن مدينة البندقية هي صاحبة هذا الشرف الرفيع عام 1600م بحكم قربها من عاصمة الأتراك وعلاقات التجارة الوطيدة التي كانوا يقومون بها بين الشرق وأوروبا، قبل اكتشاف رأس الرجاء الصالح لكن البنادقة عرفوا القهوة قبل عام 1580م حيث جلبها بعض التجار من تركيا

قال صابر:

- هل كانت المقاهي موجودة في تركيا؟

أجابه مارك قائلاً:

- في الحقيقة يا صديقي الصغير لم تكن المقاهي تركية النشأة بل انتقلت القهوة من اليمن إلى مكة مع رحلات الحج واستخدمها مشائخ الصوفية لمساعدتهم على العبادة، لكن بحدود عام 1511م توجد شواهد لإنشاء المقاهي في المدينة المقدسة عندكم أيها المسلمون، مع أنها بدأت في مكة والمدينة قبل عام 1470م وبدورها انتقلت إلى مصر والشام؛ حيث يقال أن أول مقهى تأسس في دمشق عام 1530م، ثم في حلب بعدها بعامين، ثم خرج شخصان اسمهما حكيم من دمشق وشمس من حلب في عام 1554م ليفتتحا أول مقهيين في «الأستانة» كلا على حدة.

اعتذر «مارك» بأدب هولندي لصديقه الإنجليزي «سايمون» على هذا الحديث الجانبي مع صابر، وكان «سايمون» يقدر العلاقة بينهما، وكذلك رغبة «مارك» بتوضيح خلفية القهوة التاريخية فقال سايمون:

- العالم «نيوتن» متعه الله بالصحة والعافية كان أحد رواد المقهى الإغريقي. ويعتبر المقهى حديث نسبياً مقارنة بالمقاهي الأخرى؛ فقد تأسس عام 1665م. ويقال إن نيوتن قام بتشريح دلفين على إحدى طاولات ذلك المقهى رفقة العالم «إدموند هالي» إلى جانب نقاشات علمية كثيرة مع زملائه العلماء أعضاء الجمعية الملكية وأساتذة جامعة أكسفورد القريبة من المقهى في نفس الشارع. وقد شاهدت لوحة رسمها أحدهم وهو يجسد «نيوتن» ورواد المقهى وهم يتناقشون ويحتسون مشروب البن اليمني.

دخل الجميع في نقاشات جانبية ثنائية في نفس الوقت، وكانوا يتحدثون عن التنافس وأسعار البن، بينما كان صابر يستمع إليهم بذهن مشوش نتيجة رائحة الخمر المقرفة التي أصبحت تصل إلى أنفه حتى وهو مبتعد، وكذلك نتيجة بعض الكلمات والمصطلحات التي يحاول إدراك معانيها بسرعة وسط الكلام. فبدأ مارك حديثه قائلاً:

- ارتفاع أسعار البن ونحن في نهاية هذا القرن الذي حققنا به نجاحات كبرى خدم بشكل كبير أئمة صنعاء وحكام مناطقها القاسميين في تحقيق عوائد مالية كبرى، كما أنه ساعد في ضخ كميات كبيرة من الجبال اليمنية بدعم الحكام من أجل الحصول على عوائد أكثر

بدت عليه إمارات الفخر والخيلاء وهو يواصل حديثه:

- وهانحن نصل إلى ثمانين طنا في العام حتى الآن نشحنها في سفينتين وأتوقع أن نصل إلى المائتي طن قريبًا، وبالتالي زيادة وصول تدفق البن إلى أوروبا نتيجة الزخم الهائل الذي تقوده شركة الهند الشرقية الهولندية منذ عام 1602م..

ثم غمز بعينه لسايمون وهو يقول مبتسمًا:

- هذا يعني أننا سنشاهد الكثير من اكتشافات نيوتن وعلماء الجمعية الملكية أو جامعة أكسفورد.

ضحك الجميع وخاصة سايمون الذي تقبل المزحة، لكنه قال بحماس وفخر:

- لاتنس أن شركة الهند الشرقية البريطانية هي التي تأسست أولاً ثم

جاءت شركتكم بعدها بعامين.

ثم سال مارك معيداً النقاش إلى سكته:

- ماهي نتيجة هذا التنافس الأوروبي على سهولة تدفق البن اليمني؟

- وفق معاهدة «بريدا» في عام 1667 التي تقوم على مبدأ(ما بحوزتك هو لك) والتي كانت بين بلدنا هولندا وإنجلترا، ثم شاركت بها فرنسا إثر الحرب الثانية التي شنوها ضدنا..

نظر نظرة ذات مغزى تجاه أصدقائه الانجليز وكذلك صديقهم الفرنسي «روبير» وهو يواصل مستطرداً:

- ثم أكدتها معاهدة «ويستمنستر» عام 1674م إثر الحرب الإنجليزية - الهولندية و..

قاطعه «روبير» الفرنسي بلؤم خفي:

- لكن هذه المعاهدة كانت لصالح إنجلترا في التنازل عن «نيوأمستردام» و«نيونيذرلاند»(*)..

فهم «مارك» تلميحات «روبير» الخبيثة، فأراد أن يرد له الصاع قائلاً:

- كان يجب على دولتنا التنازل عن بعض الامتيازات في ظل الحرب التي شنتها بلدكم فرنسا علينا واحتلال أجزاء من جنوب بلادنا

عاد روبير لتلميحاته وهو يقول:

(*) نيوأمستردام:هي مدينة نيويورك في الولايات المتحدة حاليا. نيوذرلاند: تشكل اليوم معظم الساحل الغربي للولايات المتحدة الأمريكية حالياً.

- لاحظت أن الهولنديين ساهموا بقوة في مشاريع بنك إنجلترا الذي تأسس قبل ثلاث سنوات فقط..

قال مارك مفتخرا: لا تنس أن من يحكم إنجلترا حالياً هو الملك ويليام الثالث من أسرة دي أورانج الهولندية الحاكمة وقد شجع هذا على الاستثمار بين الجانبين- بما أنه ملك على إنجلترا وأمير على هولندا.

ويبدو أن أسئلة «روبير» الخبيثة قد أتت أكلها.. تدخل «سايمون» قائلًا:

- أتفق معك عزيزي مارك، ولكن السبب الحقيقي هو محدودية الأسواق الهولندية وزيادة الأرباح لدى المستثمرين نتيجة نجاحات شركة الهند الشرقية الهولندية، ماجعل المستثمرين الهولنديين يبحثون عن أسواق جديدة لهم؛ نتيجة صعوبة ضخ المزيد من الاستثمارات في الأسواق المحلية في هولندا التي أصبحت متشبعة بما فيه الكفاية بشكل يوازي النجاح الضخم في الخارج وعدم وجود صادرات هولندية متنوعة تعوض هذا الفارق.

عاد «روبير» لتدخلاته الخبيثة عندما أحس أن كلامه السابق لم يؤثر في حدة النقاش، فقال:

- المشكلة الوحيدة لهذا هي أن الاستثمارات الهولندية تدعم بنكاً الهدف من إنشائه هو دعم التواجد الإنجليزي لمنافسة السيطرة الهولندية وهذا البنك أدى لنجاحات استثمارية قوية في إنجلترا فطن «مارك» لما يريده «روبير» فأراد التخفيف من أثر أسئلته الاستفزازية

للطرفين فقال:

- في هولندا خشيتْ النخب المحدودة والمستفيدة من عوائد الشركة الهولندية من مخاطر الاستثمارات؛ لهذا فقد فضلت الاستثمار في السندات المملوكة للحكومة والأصول المالية المسالة؛ لهذا فقد وجدتها فرصة في بنك إنجلترا- مع وجود ملك هولندي يحكمها- لتكرار الأرباح المحلية السابقة في هولندا بدلاً من الاستثمار في الانتاج والتصنيع والزراعة بشكل فردي

قال «سايمون»:

- المهم هو ألا يتم تخفيض الإنفاق الحكومي لتعويض زيادة عبء الدين العام أو زيادة الضرائب، والتي سيتحملها أفراد الشعب الهولندي بدرجة أكبر يامارك..

- يبدو أننا سنواجه بعض الفوضى الاقتصادية، إن لم تحل بسرعة؛ لأننا أكثر من سيتضرر في شركة الهند الشرقية الهولندية كأهم قوة اقتصادية للبلد، وقلة الإنفاق الحكومي تعني ترشيد الدعم العسكري، وهذا يعني نهاية الشركة بدرجة أولى كممثل عسكري واقتصادي للبلاد..

هنا تدخل الهولندي «جاسبرت» الذي ظل صامتاً منذ بداية الحديث رفقة «البافاري فريدريك» فقال:

- نحن حتى الآن لا زلنا مسيطرين وناجحين للغاية، لكنني أخشى من جيراننا الأوروبيين الذين يحاولون وبكل قوة مزاحمتنا وقد بدأوا بالفعل فأصبحنا نرى سفنهم وجنودهم في كل مكان نتواجد به..

كان «جاسبرت» يشير إلى الإنجليزي «سايمون» والفرنسي «روبير» عندما كان يتحدث في موضوع الجيران الأوروبيين، ثم أشار إلى «فريدريك»، وقال:

- وربما قد تتحد المقاطعات والمدن الألمانية في أي وقت وتنافسنا بسبب قربها منا وتوسطها لأوروبا ومساحتها الكبيرة..

قال «البافاري فريدريك» متحسراً:

- نحن مقسمون على عشرات الإمارات والأراضي وسنظل هكذا لفترة طويلة يا صديقي.. نعيش فقط على أنقاض الإمبراطورية الرومانية المقدسة التي لاتزال تتنفس الأمراض..

لم يشأ «مارك» أن تنتهي الليلة بالحزن، لهذا قال ممازحاً صديقه الإنجليزي سايمون:

- لقد أخبرت صابر عن إغلاق تشارلز الثاني لثلاثة آلاف مقهى في بلادكم.. كيف توقع الملك أن تسبب المقاهي كل هذه الفوضى.. إنها حيلة العاجزين على الطريقة الإنجليزية.

ضحك الجميع بمن فيهم «سايمون» الذي التفت إلى صابر وهو يقول له محذرًا:

- إياك أن تصدقه بأن الهولنديين أول من وصل إلى أرض اليمن من الأوروبيين..

ثم نهض منتشياً من آثار الخمر وهو يقول بفخر:

- نحن أول من وصل إلى هنا

قال له مارك:

- لست بحاجة لأن أكذب في شيء حدث بالماضي، المهم أننا أول من تاجر وفتح مكتبا هنا، وأول من أوصل شجرة البن إلى أوروبا، وأوصل ثمار البن إلى غرب أوروبا، وآخر من سيصل خلال شهر من الآن.

قال صابر متسائلاً:

- دعونا نتكلم بجدية كما كنا. من هو الذي وصل أولًا..؟

أجاب «مارك» بصوت منخفض وهو يشير إلى «سايمون» بسبابته:

- هم..!

قام «سايمون» بالضحك وهو يقول:

- سأخبرك بالحقيقة أمام «مارك».. في عام 1609م وصل الكابتن ألكسندر «شاربي» إلى اليمن إلى المخا وأوصى بالاهتمام بها، لكن الحاكم العثماني حذره بأن البحر الأحمر خاص بالدولة العثمانية وبأنه سيسمح له إذا أحضر فرماناً من السلطان في أسطنبول. وقد شاهد «شاربي» حركة التجارة من العثمانيين والشوام والهنود والأحباش في المدينة. وفي عام 1610م وصل «السير هنري ميدلتون» بثلاث سفن إلى المخا، لكنه وقع أسيراً ورحلوه إلى صنعاء مع ثلاثين بحاراً في قبضة الوالي العثماني جعفر باشا، لكنه هرب واستطاع الوصول إلى سفينته وقام بقصف المخا، وفي عام 1612م وصل «جون ساريس» بعد استصدار فرمان من السلطان العثماني بعد تلقيه أموالاً ضخمة، لكن مع عدم إقامة وكالة دائمة. وفي عهد السلطان العثماني الضعيف عثماني الثاني تم السماح بإقامة وكالة

دائمة في عام 1618م عبر «أندرو شيلينج» على متن السفينة رويال التابعة لشركة الهند الشرقية الإنجليزية..

ثم أشار إلى «مارك» وهو يقول ممازحا:

- والآن دعه يخبرك متى وصلوا إلى هنا

قال «مارك» بحدة لأول مرة:

- أنا لم أخبره أننا أول من وصل. وصلنا إلى المخا 1614م وفي نفس العام الذي حصلتم به على الفرمان استطعنا الحصول على نظيره من السلطان عثمان الثاني 1618م وبعد عامين في 1620 م قمنا بافتتاح وكالتنا التجارية الأولى

عندها قال الفرنسي «روبير» محاولًا لفت الأنظار وسط كم الإنجازات الهولندية والإنجليزية:

- أول مقهى فرنسي افتتح عام 1686م، افتتحه الإيطالي «فرانشيسكو بروكوبيو دي كولتيلي» وأسماه مقهي «بروكوب» على الضفة اليسرى لنهر السين في باريس قريبًا من جادة «سانت جيرمان»..

ثم قال بخبث- وهو يشير بطرف عينه إلى فريدريك الألماني-:

- رغم أن أول مقهى في باريس تأخر إلا أننا أفضل من غيرنا ممن لا يزال يعيش في القرون الوسطى وأمجاد الماضي

أدرك «البافاري فريديريك» مايرمي إليه «روبير» الفرنسي، لكنه كان هادئاً بشكل يعكس وضعه كمجرد جندي في خدمة شركة تمثل بلداً آخرَ، فقال:

- لا تنس أن كل الموجودين هنا ننتمي إلى القبائل الجرمانية التي هاجرت من شمال أوروبا حيث تقبع أراضينا ومافوقها من الأراضي. وحينما قسم شارلمان إمبراطورية الفرنجة التي كان يحكمها بين أبنائه وعاصمتها «آخن» الألمانية ومن اسم الفرنجة جاء اسم بلدكم فرنسا..

ثم اتجه بوجهه إلى بقية الحاضرين وهو يقول بلهجة ساخرة وهادئة في نفس الوقت:

- لهذا ففرنسا عبارة عن خطيئة «شار لمان» التي لا تغتفر.

أخذ الجميع بالضحك على رد «فريدريك» القوي والساخر ماعدا «روبير» الذي أراد تخفيف ردة الفعل بمشاكسة «مارك» فقال له متحدياً:

- هل تنكر يا «مارك» أن الأسرة الحاكمة في هولندا «أورانج» تعود أصولها إلى إمارة «أورانج» في بلدي فرنسا..؟

ابتسم «مارك» هذه المرة وهو يقول بهدوء:

- «ويليام» الصامت هو أبو الوطن وأول ملوك أسرة أورانج - ناسو، لكنه لا ينتمي إلى إسرة «أورانج» بل ورثها من ابن عمه «رينيه» الذي ورث إمارة «شالون أورانج» من خاله «فيلبرت»، فقام «ويليام» الصامت وأسس إمارة «أورانج- ناسو» لذلك هم يعودون إلى «دوقة ناسو» الألمانية الذين كانت لهم فروع وسلالات حكمت في مناطق مختلفة من أوروبا. هل فهمت أيها الذكي؟!

ثم اعتدل في جلسته وهو ينظر إلى وجوه الحاضرين بفخر:

- ومازالت الأسرة الحاكمة رغم كل ذلك تملك الإمارة وهي في أرضكم[*].

حاول «روبير» الابتسام بهدوء وهو يحاول إعادة الحوار إلى الحديث عن البن كعادته كلما تعرض للإحراج فقال:

- جميعكم تعرفون خبز «الكرواسون» النمساوي اللذيذ، لكن ربما لا يعرف بعضكم سبب صناعته للمرة الأولى، وما علاقة ذلك بالبن اليمني..؟

أبدى الجميع استعدادهم لسماع القصة بمن فيهم «روبير» فقال «فريدريك»:

- النمسا هي أراضٍ ألمانية، لكن مع تدهور الإمبراطورية الرومانية المقدسة الحالية التي تسيطر على معظم الأراضي الألمانية وغيرها وسط أوربا فإن حكام النمسا من آل «هابسبورغ» بدأوا بالتوسع وزيادة نفوذهم حتى أصبحوا أقوى الممالك والإقطاعيات الألمانية، ونسميها نحن «أوستريا» أي الأراضي الشرقية.

وقبل ستة عشرعاماً وتحديداً في 1683 م، حاصر الأتراك العثمانيون فيينا في معركة «كالينبيرج» بسبب تداخل حدود البلدين في المجر وشرق أوروبا، وأثناء الحصار كان هناك رجل نمساوي ينقل البريد بين الأتراك وقادة المدينة المحاصرة اسمه «جورج «فرانز كولشينسكي» الذي كان يتناول مشروب القهوة الساخن عند قادة الجيش التركي، بينما لم يكن يشرب عند قادة فيينا سوى المشروبات الكحولية. وبعد فشل المفاوضات التي كان «كولشينسكي» الناقل لها بين الطرفين.. قام الجيش العثماني

(*)

بمحاولة التسلل عبر حفر أنفاق تحت الأرض ولم ينتبه لها سوى بعض أصحاب المخابز الذين كانوا يسهرون في الليل؛ حيث سمع أحدهم أصوات الحفر فقام بإبلاغ الجنود النمساويين وتم القضاء على التسلل بنجاح. عندها اهتدى ذلك الطباخ لفكرة صنع خبز على شكل هلال يمثل شعار الأتراك لتخليد المناسبة، وبعد فشل الحصار كان الأتراك بعد انسحابهم قد خلفوا الكثير من أغراضهم بما فيها كميات كبيرة من البن اليمني، فطلب المفاوض «كولشينسكي» أن يحصل على أكياس البن وافتتح بها أول مقهى في فيينا، إلا أن النمساويين لم يستسيغوا طعم القهوة المر فأضاف إليها السكر والحليب.

ثم نهض واقفا وهو ينظر إلى «روبير» الفرنسي:

- هذا يعني أننا أقدم منكم بثلاث سنوات كاملة، وأخشى أن تسرقوا منا طريقة صنع القهوة والخبز وتنسبونه لأنفسكم كما سرقتم اسم بلدكم منا.

تعالى صوت الضحكات لفترة طويلة من الجميع بمن فيهم «روبير» على مضض، واستمر النقاش الجانبي فيما بينهم لوقت طويل، لكن صابر استأذنهم في الانصراف من أجل النوم، وكانت المرة الأولى التي يحضر بها اجتماعاً وسط أوروبيين يتحدثون بخليط من عدة لغات حتى يفهمون بعضهم حينا بالبرتغالية، وحينا بالعربية أو الهندية، وكذلك بلغاتهم المحلية التي بدت لصابر أنها تتشابه في بعضها لكنها تختلف في النطق.

وبعد نقاشات رأس السنة الحافلة تلك بين الأشقاء - الأعداء

الأوروبيين- أوى صابر إلى فراشه. وبما أن لأحلام السيئة لا تأتي مرة واحدة بل تتكرر، كذلك الشخص الثقيل الذي تكرهه فتراه في كل مكان..

في ذلك المساء أخذ صابر يمشي في نفس الحجرة البيضاء الكبيرة لكن العقود الجدارية اختفت وكذلك اللوح الرخامي، وفي آخر الحجرة ظهرت كوة جدارية مربعة الشكل وصغيرة ويجلس داخلها غراب أصفر اللون ينظر إلى السماء الرمادية التي يظهر منها انعكاس معدني لامع لضوء مجهول المصدر.

أخذ صابر يتأمل في ذراعيه السليمين هذه المرة، لكن كم السترة التي يرتديها ممزق كما كان آخر مرة، وعلى عكس المرة السابقة كان يشعر بآلام خفيفة، وبينما هو يسير في أرجاء الغرفة كان يتمنى لو يتوقف الحلم عند هذه النقطة دون فائدة. وبينما هو يسير باتجاه الكوة استدار الغراب وأخذ ينظر إليه بعين بشرية واحدة، ثم أخذ يصيح بصوت بشري غير مفهوم وبلغة غريبة لم يفهما، فأخذ يجري مبتعداً باتجاه الجدار البعيد في الجهة الأخيرة، وكلما اعتقد أنه وصل إلى الجدار كان الجدار يبتعد بسلاسة تتناسب مع سرعة جريه. حينها قرر أن يستخدم الحيلة حيث قرر التوقف ثم أعطى ظهره إلى الجدار قبل أن يجري إلى الخلف حتى اصطدم بالجدار الذي توقف بقوة سببت له آلاماً في ظهره. وبينما هو يتأوه سمع صوتا يأتي من الأعلى وحين رفع رأسه لمعرفة الصوت وجد الكوة نفسها التي كانت في الجدار المقابل وقد انتقلت بطريقة غامضة بينما الجدار المقابل خالٍ تمامًا من أي شيء. وبينما هو ينقل بصره بين الجدارين قرر القفز إلى حيث الكوة والهرب حيث ابتعد عن الجدار بضع خطوات ثم

أخذ بالجري لمنح نفسه قوة دفع تساعده على القفز، رغم أن الكوة ليست بعيدة وقفزته عادية، لكنه ظل لفترة طويلة وهو في الهواء حتى وصل إلى الكوة فتعلق بها بكل قوته وهو يحاول حشر نفسه من خلالها للهروب، لكنه فوجئ بذراعين كبيرتين تمسكان بقدميه في الأسفل، بينما نصفه العلوي يتدلى خارج الكوة ولا يرى ما بداخل الغرفة، لكنه بنفس الوقت يشاهد المنظر حيث كان الغراب الأصفر يمسك بقدميه بكل قوة وهو يبتسم بخبث؛ محاولاً سحبه إلى داخل الحجرة وكلما حاول المقاومة انزلق جسده إلى الخلف وهو يصيح ويستغيث، وهناك ذراع قوية توكزه بكتفه برفق وصوت قادم من بعيد يناديه:

- صابر.. صابر.. حان وقت الاستيقاظ

ومع آخر صرخة قام فزعاً من نومه دافعاً جسده إلى آخر السرير ليسقط في الجهة الأخرى وهو يحاول اتقاء الهجوم عليه بذراعيه قبل أن يدرك أنه كان يحلم، وما الصوت الذي كان يناديه إلا صوت «روجا» التي كانت واقفة إلى جانب السرير وهي تضحك مما شاهدته، فقد أتت لتوقظه لصلاة الفجر كما أمرها مارك؛ حيث إن أمامهم يوم عمل شاق، أما هو فقد احتاج إلى وقت طويل حتى يستعيد ثباته وتوازنه ويتخلص من فقدان التوازن الذي رافقه أثناء رحلة العودة من حالة اللاوعي إلى واقع المخا الهاديء.

مع العمل في اليوم التالي لم يستطع نسيان الحلم خاصة مع تكراره، وحدثته نفسه بإخبار مارك الذي علم بما حدث عند استيقاظ «روجا» لكنه لم يشأ إخباره عن طبيعة الحلم، أو يخبر الشيخ طه الذي يملك

اطلاعاً بلا شك على كتب تفسير الأحلام، وللصالحين كرامات وأبواب يدخلون منها على عوالم أخرى لا يدركها البسطاء. وبين أخذ ورد قرر أن يصمت. فالأحلام إن قيلت وقعت وإن رويت رؤيت، وربما هي رسالة تحذير لا تخصه إلا هو ولم يرها سواه.

* * *

طريق البن العالمي..

يومياً تتم عمليات شراء البن وتخزينه مباشرة بين المزارعين والسماسرة الذين كان معظمهم من «البانيان» فيتولون مهمة الترجمة بين اليمنيين والأوروبيين والتي كانت في معظمها باللغة البرتغالية التي كانت أول بلد أوروبي يصل إلى الهند ويستعين بالهنود في أعماله، كما أن «البانيان» يقومون بالتوسط بين الطرفين لحصول عملية الشراء مقابل نسبة مئوية من قيمة البن. وكان عدد البانيان كبيراً جداً يقدرون بالمئات في المخا. وقد لاحظ صابر أن بعضهم تبدو عليه أمارات الثراء الفاحش وبعضهم يقوم بإقراض الأوروبيين بالربا، بما أن اليمنيين لا يتعاملون بالربا ولا بالقروض بل كان كل مايبيعونه نقدًا فوريًّا. وقد اكتسب صداقات البعض منه بحكم العمل والاختلاط اليومي، وكان أكثرهم قرباً شاب منهم اسمه «سوراجي» وكان لطيفًا ونشيطاً، كان يعرفه منذ قدومه إلى المخا وقد ساعده كثيراً حينما كان يعمل مع حماره لبيب.

أصبح صابر يستعين به في صرف العملات التي يكلفه بها مارك وكذلك في أعمال السمسرة والدلالة التي يجيدها «البانيان» وهي سبب وجودهم في اليمن وليس لهم عمل آخر يقومون به. وقد عرف منه أن

البانيان يصلون إلى الآلاف في عموم المناطق اليمنية- من شرقه إلى غربه- وكان «سوراجي» قد عمل في مناطق كثيرة داخل اليمن وخارجها وكثيرًا ما ذهب إليه صابر في منزله للاستفسار عن بضاعة جديدة، أو لصرف بعض العملات الأوروبية، وقد رآه عدة مرات يقوم بعبادة صنم على هيئة إنسان ضخم الجثة بكرش كبيرة وأذنين كبيرتين، وطالما تحدثا عن البانيان وسبب التسمية وأصولهم فعرف منه أنها بلغتهم «فانيو» تعني التاجر، والبرتغاليون حرفوها إلى بانيان ولكنها أصبحت تطلق بمعنى تاجر هندي من غوجرات، وأنهم من مناطق هندية مختلفة مثل «سورات» و«جوا» و«دامان» و«كمبايا» و«ديو» وغيرها، لكن الأغلبية هم من «غوجرات»، وكذلك كانت دياناتهم مختلفة: فمنهم المسلمون و«الزرادشت»، الفرس ولكن الأغلبية هم من الهندوس و«الغوجراتي» يحبون التجارة ويتميزون بالأمانة، ولهذا تعتمد عليهم الدول المختلفة.. كما لاحظ صابر أنهم يجيدون التحدث باللغة العربية والبرتغالية التي يتحدثون بها مع الأوروبيين، ويتوسطون بينهم وبين اليمنيين. ولهذا أصبح التواصل سهلًا بين الطرفين. وقد أخبره «سوراجي» بأنهم يتواجدون في اليمن منذ ماقبل وصول الأوروبيين كما أن لديهم جاليات في كل من «ظفار» و«قشن» و«الشحر» وعدن والمخا وزبيد والحديدة وبيت الفقيه واللحية وريمة وشهارة والصلبة في حجة وصنعاء، وهم كذلك يجيدون أعمال المقاهي والمطاعم. وأخبره بأن بعض البانيان في صنعاء قاموا بإقراض بعض الأئمة والتجار.

دائماً ماكان سوراجي يحدثه عن العملات والوضع الصعب في ظل

عدم وجود عملة محددة في البلد بل كان كل حاكم من أقارب إمام البلاد يقوم بإنشاء دار سك وضرب عملة خاصة به ويوظف بها بعض اليهود والهنود لصك عملات مضروبة ومغشوشة من أجل الثراء وزيادة نفوذهم لمنافسة الإمام والسيطرة على الحكم. كما كان للإمام دار سك أخرى تقوم بسك البقشة والحرف والدرهم بلا ضوابط. وقد أخبره أن البقشة موجودة من أيام الإمام المتوكل، لكنه سمع من بعض البانيان الكبار أصحاب الخبرة الذين عملوا في مناطق كثيرة أن مسمى البقشة بدأ به السلطان بدر أبو طويرق الكثيري في حضرموت قبل مائتي عام بالإضافة إلى الريال، وأن البقشة كلمة تركية تعني «البقجة» وتعني لفافة القماش أو الصرة وربما أخذت من الصرة التي توضع بها النقود، وكانت أبرز العملات التي يتعاملون بها هي الدولار المكسيكي وهو أسباني في الأساس يتم صكه في إحدى مستعمرات أسبانيا في القارة الأمريكية الجديدة، وكان يسمى أبو ثمانية أو قطعة من ثمانية حيث يمكن تقطيعه إلى ثمانية قطع أو أربع أو قطعتين وكل قطعة يكون لها سعر بحسب حجمها وذلك نتاج الثقة في هذه العملة الفضية، وهناك عملات أوروبية كثيرة كـ(التالرالنمساوي) و«الجيلدر» الهولندي لكن بعضها من النحاس أو خليط من النحاس والفضة، وبالتالي فالثقة بها قليلة.

وعندما كان «سوراجي» يتحدث معه عن النقود وصك العملات والغش في تزويرها من قبل عمال الإمام من أقاربه، تذكر صابر درسًا أدبياً ألقاه عليهم الشيخ طه ذات مرة من ضمن الدروس التي يلقيها عليهم وقد كان عن شرح قصيدة (سما بك شوق) للشاعر الجاهلي امرؤ القيس وكان

الدرس بعنوان «عندما كانت العبقرية في اليمن» سرح صابر بخياله وهو يسترجع كلمات الشيخ حتى وصل إلى البيت الذي يقول به الشاعر في وصف ناقته التي تجري في الشام وهو في طريقه إلى قيصر الروم:

«كَأنّ صَلِيلَ المَرْوِ حِينَ تُشِذُّهُ صليل زيوفٍ ينقدنَ بعبقرا»

ثم أخذ صابر يتذكر كلام الشيخ وهو يقول:

- من أكثر الكلمات التي كانت تثير فضولي هي كلمة العبقرية لوصف كل شيء خارق ثم أصبحت رهناً للذكاء الخارق، ثم الأساطير المروية التي تتحدث عن وجود وادٍ للجن نسب له العرب جودة الشعر وأن لكل شاعر من العرب جني من عبقر وأسرفوا في منح أسماء الجن المرافقين للشعراء وهي موجودة في كتب التاريخ على كل حال. لكن الذي لفت نظري إلى المعنى الحقيقي للكلمة هو قوله تعالى: (متكئين على رفرف خضر وعبقري حسان). فكيف تتحول النسبة إلى وادٍ، كلمة أصلية وليست صفة. وقد اختلف المفسرون في شرح معنى كلمة عبقري لكنهم متفقون على أنها نسيج من القماش بارع الدقة، فمن قال بأنها الزرابي أوالبسط واللباس أوالنسيج الموشى.

ويواصل الشيخ حديثه قائلًا:

- لكن مازادني تأكيداً في شكوكي واستنتاجاتي هو هذا البيت للشاعر اليمني الكندي امرؤ القيس، وفي شرح البيت يقول الأدباء بأن امرأ القيس يصف عدو الناقة وقوتها في العدو وصوت الحجارة وهي تتطاير تحتها كأنها صوت فحص الدراهم المزيفة في عبقر. فقالوا بأن عبقر هو واد في شرق

اليمن مشهور بالصناعة ومنهم من قال «مشهور بتزييف النقود بناء على البيت دونَ فهم المعنى». ومنهم قال بالسلاح ولكن تفسيري للموضوع هو أن وادي عبقر كان مشهوراً بصناعة كل شيء، كما كانت الصناعات اليمنية تملأ كل بيوت العرب وملابسهم وحياتهم، ومن ضمنها أنهم برعوا في النسيج كما برعوا في مجالات أخرى، حتى كان العرب يقولون من باب التفاخر: «نسيج عبقري» ثم أصبحت لفظة عبقري تدل على النسيج المصنوع في عبقر فيقال: هذا عبقري جميل، ثم مع مرور السنوات والقرون أصبح يقال: «لكل شيء جميل وبارع عبقري». ومع تنامي تعلق العرب بالشعر وانبهارهم أصبحوا يطلقون على كل شعر باهر صفة العبقرية، فاخترعوا أسطورة جن عبقر، وبنفس الوقت تقال لكل رجل فذ الذكاء ومنه قول النبي ﷺ في عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (فلم أر عبقريًا يفري فريه).

وبالمناسبة كان عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ معجبًا بالشعر وخبيراً به، وكان يقول عن امرئ القيس بأنه (خسف للشعراء عين الشعر) أي أنه جعل الشعر أسهل على الشعراء باختراعه الصور والتراكيب والطرق الشعرية التي لم يستطع الشعراء تجاوزها بعد مرور اثني عشر قرناً على وفاته حتى الآن، بل يعتبرهو سقف الشعر وأنه تفوق على كل شعراء الجاهلية والإسلام.

أصبح الوضع يسير بصورة حسنة بالنسبة إلى صابر والذي كان يشعر أن الحياة ابتسمت له وبدأ يجد منها الضوء الذي يرشده لمستقبل

بهي، لكن في اليوم التالي حدث موقف كاد يقتله من الداخل، وهو المراهق المسالم والمكافح في معركة الحياة، حيث كان يوم صلاة الجمعة الذي يعتبر يوم توقف العمل في السوق رغم أن أعمال الشركة لا تتوقف، وكان صابر كبقية اليمنيين يذهبون لصلاة الجمعة في جامع الشاذلي أكبر مساجد المدينة وأقدمها بمئذنته البيضاء الجميلة التي تبدو للقادمين من البحر كفنارعريق يرشدهم دون نور. وبعد الخروج من الصلاة لمح وجهاً مألوفاً وسط جموع المصلين يحاول أن يتفاداه إلا أنه لحق به ليعرف إن كان هو أم شخص آخر. وعندما وصل إليه عرفه وأخذ بمناداته باسمه عدة مرات دون أن يرد عليه رغم سماعه له من هذه المسافة القريبة. كان عبدالله أحد أقاربه وصديقه، ويبدو أنه جاء إلى المخا لإحضار بعض الرسائل لعمه. اقترب من عبدالله وقام بالإمساك به إلا أنه حاول التملص منه، لكن صابراً كان مصرًا على معرفة السبب، ففوجيء به يخبره بأن الخبر قد وصل بأنه قد ارتد عن الإسلام وأصبح كافرًا يعمل مع النصارى والكفار، وأن أمه حزينة وهي تواجه نظرات اللوم والعار من أهل القرية وعبارات التشفي من بعضهم. وكان صابر يستمع بذهول لما يقول عبدالله- وهو صديق عمره وقريبه - وعندما حاول أن يشرح له استدار صديقه للانصراف عنه بحدة بالغة.

كانت الكلمات تنهال على مسامع صابر كصخور بلاده الصلبة وهو يشاهد صديقه ينظر إليه باحتقار مبتعداً عنه، بينما بقي هو واقفاً ينظر بذهول وصمت وجموع المصلين تعبر من جانبه للخروج؛ كأن الزمن توقف به وسط خطوط ممتدة بلا نهاية من العابرين حوله، وتذكر الأحلام التي

تراوده في منامه ويراها متجسدة أمامه، لكنه يرى منازل المخا البيضاء بدلاً من القاعة البيضاء الكبيرة، واللوح الرخامي هو صديقه عبدالله وذراعاه المقطعان هو طعنه في دينه. وظل على وقفته تتلاعب به أفكاره جيئة وذهابا حتى فوجئ بيد تربت على كتفه، فالتفت ليجد الشيخ طه الشاذلي إمام الجامع، فأخذ صابر يمسح ما هيئ له أنها دموع على طرف عينيه من شدة الحزن والكمد، بينما كانت عيناه جافتان من الصدمة. أخذ الشيخ يواسيه، وبعد إلحاح منه لمعرفة سبب حزنه أخذ يشرح له ماحدث فقال له الشيخ مواسياً وهو يعود به إلى داخل المسجد:

- المؤمن مبتلى وهذا هو أساس وجودنا على الأرض.
- ولكن ياشيخنا الفاضل يجب علينا دفع البلاء.
- في الأصل يجب علينا الصبر على البلاء
- هل تريد مني السكوت والتسليم بما يرمونني به من التهم؟
- اعْبدِ الله واصبر على عبادته وأن يكون عملك خاصًا لوجه الله وهو بقدرته سيوصل إليهم الحقيقة يقول الله تعالى: (فاعبده واصطبر لعبادته) ولنا في الله المثل الأعلى فتراه يكرم المرء وهو يكفر به أو يعصيه و في الحديث:(لا أحد أصبر على أذى يسمعه من الله عز وجل)

وصلا إلى قرب المحراب، فجلس الشيخ على الأرض وصابر يقول:

- ولكننا بشر لنا قدرات محدودة وطاقات، لا نستطيع أن نتحمل ماهو أكثر منها..
- يا ولدي.. كان القطب الرباني سيدنا أبو الحسن الشاذلي- الذي

تنسب إليه طريقتنا في التصوف وننتسب نحن إليه- يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (ضادد الجزع بالصبر، وضادد التكبر بالتواضع، وضادد الهوى بالعقل)

- هل أتقبل الأذى الذي يضرني في ديني ونفسي وأهلي ومالي وعملي..؟ ألا يكفي عمي أنه استولى على أموال أبي وهو شريكه في العمل والجهد، وكذلك استولى على أراضينا منذ وفاة والدي ولم يمنحنا إلا القليل بحجة الحفاظ على إرث الأسرة

- سأعيدك مرة أخرى إلى مولانا الشاذلي ياولدي إذا يقول: (زهد المرء فيما يفنى على قدر رغبته فيما يبقى) وأنت يا ولدي إذا صبرت كنت صابرا مثل اسمك، تصبر حينًا وتجزع حينًا، وهذا طبع البشر، ولكنك لن تكون صبّارا إلا إن كان صبرك لله و في الله..

نهض الشيخ من مكانه وسحب صابراً من يده؛ حيث سارا معا إلى خارج المسجد والشيخ يواصل حديثه قائلاً:

- كان شيخنا أبو الحسن علي بن عمر الشاذلي صاحب هذا الجامع وقطب الطريقة في بلادنا اليمنية يقول: (الابتلاء الحقيقي هو عدم الصبر عند وجود البلاء وترك الله إلى الشكوى لخلقه) وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قد رحل وجاب الأرض وتعرض لكل المكاره وأصناف الرزايا حتى عاد إلى اليمن وكرس حياته لله، فألهمه ابتكار القهوة كي يتقوى بها على سهر الليل وعبادته.

- هل هو أول من شرب القهوة؟

كانا يمشيان في شوارع المدينة جنبا إلى جنب والشيخ يمسك بيد

صابر حينًا أو يضع يده على كتفه حينًا آخر، وبين فينة وأخرى يمر بهم بعض الناس فيسلمون على الشيخ أو يقبلون يده وهو يحكي لصابرعن الشيخ عمر بن علي الشاذلي قائلاً:

- لاشك في أن الشيخ هو أول من شرب القهوة وجعلها في الماء الساخن، وهذا ثابت ومعروف ومتواتر لدينا حين استقر به المقام في المخا بعد رحلات طويلة إلى مصر؛ حيث تتلمذ على شيوخ الطريقة الشاذلية في مصر، ثم ذهب إلى ساحل إفريقية، وبعد استقراره في المخا مرضت زوجته، فنصحه بعضهم بثمار شجرة تدعى البن تزرع في الجبال، فذهب إلى جبال وصاب وأحضر الثمار وأعطاها لزوجته بعد أن نقعها بالماء فشفيت، وهكذا استمر حتى اكتشف قدرتها على مغالبة النوم والتقوي بها على العبادة والتبتل والخلوات في الليل. وهانحن في العام 1110 من تاريخ الهجرة النبوية الشريفة على صاحبها أفضل الصلاة والتسليم وشيخنا الشاذلي عليه رضوان الله توفي في العام 828 للهجرة. وواظب أبناؤه وتلامذته ومريدوه على تناول القهوة حتى انتشرت في كل زوايا اليمن وزاد استهلاكها ونقلها الحجاج اليمنيون إلى مكة والحجاز بعد وفاة الشيخ بخمسين عاما أي في عام 874 للهجرة الشريفة بعد تداول الناس لها ونقلها معهم إلى خارج اليمن

قال صابر بحماس:

- أي أنه توفي في العام 1470من التاريخ الميلادي..

ابتسم الشيخ من حماسة صابر كدليل على انسجامه بالعمل وربت

على كتفه وهو يقول:

- والطبيب العربي أبو بكر الرازي في كتابه الحاوي ذكر القهوة والبن أي الثمار والبنشام أي المشروب من ضمن الأدوية، والرازي ولد عام 852 للهجرة بعد وفاة شيخنا الشاذلي- رحمهما الله جميعا- لكني لم أعثر على كتابه حيث يقال بأنه مفقود. لكن الطبيب ابن سيناء في كتابه القانون ذكر البن والبنشام من ضمن 740 دواء.

- هل نزرع في اليمن مايكفي العالم كله. فقد سمعت أنهم يحاولون زرعه في دول أخرى بعيدة؟!

- جبال اليمن بكلها مكرسة لزراعة البن بسبب الرواج والإقبال الشديد على شرائه فكل مايزرع يباع، وأصبح اليمنيون يشربون قهوة قشر البن؛ حتى يبيعون الثمار كلها، وهذه تضحية كبيرة نقدمها للعالم الذي أحب القهوة؛ حيث نحرم أنفسنا من ثمار البن ونكتفي بقشورها. استمرا بالتجول والمشي في شوارع المدينة وهما يتحدثان بلا انقطاع والشيخ يشرح له بعض معالم المدينة ومبانيها وقلاعها وكيف بدأت من أطلال ميناء حميري عتيق أحياها الله على يدي الشيخ أبي الحسن الشاذلي؛ حتى أصبحت مدينة يؤمها التجار بنفس قدرمايؤمها الزهاد المتعبدون. وكان الشيخ يحاول أن يشرح له مامر به الشيخ من محن وابتلاءات تَقوى عليها بالصبر وشكر الله. ومازالا يتمشيان حتى حانت صلاة المغرب، فاتجه مع الشيخ إلى الجامع، وكان صابر قد نسي كل مابه من هموم ومارموه من تهم، وكأن الشيخ غسل قلبه وأزال كل ما أصابه.

نام صابر ليلتها بعد جهد شديد، وهو يحاول النوم وسط معارك الأفكار والهموم التي تدور في رأسه الصغيرة تذكر صديقه عبدالله وكيف استطاع أن يصدق الأكاذيب حوله، وتذكر قصصهما وأحاديثهما معا. فعبدالله كان فتى مضحكاً يحب المزاح والتسلية ويوقع نفسه دوماً في المواقف المحرجة التي تثير الضحك في الجميع، وفي نهاية المطاف نام مبتسماً وهو يتذكر تلك القصص والمواقف. في اليوم التالي فوجيء بصديقه عبدالله يحضنه بقوة في الشارع وهو يبكي ويعتذر إليه راجياً منه الصفح والمغفرة على سوء ظنه به، حيث كان قد رآه مع الشيخ طه الشاذلي، وهما يتجولان والشيخ يمسك بيده. حينها عرف صابر أن الشيخ بذكائه كان قاصداً أن يمشي معه حتى يراه الجميع بمن فيهم صديقه عبدالله الذي أدرك خطأه، فأخذ يبحث عن صابر حتى وجده فاعتذر له عن سوء ظنه، وأن عمه هو من نشر خبر ارتداده، فقبل اعتذاره وغفر له سوء ظنه وظلمه وطلب منه العودة إلى عمه وعدم إخباره بأي شيء حتى يرى في أمره. وأخبره صابر بأنه لن يسامحه حتى يذهب إلى البلاد ويخبر أمه أنه بخير، ولا صحة لما يقال وهو ما وافق عليه عبدالله.

وعندما عاد إلى منزله منتشياً كان بيده كمية من البن لاستخدامها في المنزل، عندما شاهد العبد الذي يعمل في منزل جارتهم يقف أمام المنزل، فتوقف عن السير. حينما خطرت فكرة مجنونة في ذهنه لكنه تردد وقرر مواصلة السير نحو منزله، وبعد عدة خطوات عاد للتوقف ثم قرر السير قبل أن يعود مجددًا للتوقف وهو ينظر إلى الأرض حيناً وحينًا إلى حيث يقف العبد، وبعد شد وجذب، وتوقف، وسير، وإرسال للنظر وإرجاعه،

قام بالسير بضع خطوات تجاه العبد ثم ناداه بصوت خفيض من طرف خفي، فأتى العبد إليه بسرعة وثقة.. قام صابر بتسليمه كمية البن كاملة وهو يشير إليه أنه يمنحها لسيدته، ولم يكن العبد يتكلم اللغة العربية، فكما يبدو أنهم قد جلبوه من الحبشة قبل فترة قصيرة لكنه كان يجيد التحدث بكلمات قليلة ويفهم معظم الكلام. طلب منه العبد انتظاره حتى عودته. خلال لحظات الانتظار القصيرة بدأت الوساوس تسري في عقله خوفاً من الله أولاً، ثم خوفًا من وجود زوجها، وكيف له أن يتجرأ بهذا الشكل وهو يعلم أنها علاقة محرمة ينهى عنها الدين والمجتمع والعرف والأخلاق الكريمة. وبينما هو في وسط وساوسه غارق إلى أذنيه في دقائق مرت كأنها دهر كامل وهو يتلفت حوله بين فينة وأخرى خشية من قدوم أحدهم، شاهد العبد وهو قادم وعلى فمه ابتسامة كبيرة فاطمأن لذلك بعض الشيء. قام العبد بتسليمه لفافة قماشية وهو يشير إلى «روشان» في منزل جارهم الذي يقع في الطابق الثاني فوقهم، وحينما رفع صابر رأسه لمشاهدة الروشان لم يكن يرى شيئاً فهذه هي وظيفة الروشان بمنع أنظار العابرين في الطرقات من الدخول إلى المنزل، لكنه سمع صوت ثلاث طرقات خفيفة على خشب الروشان، حينها تمنى لو كان هواءً يتسلل من بين ثقوب الخشب كي يراها وفي ذهنه مشاهدها المثيرة وهي في فناء منزلها. قبض على اللفافة التي في يده وذهب إلى منزله، وفي المنزل فوجيء بأن مزنة وروجا جاريتي مارك كانتا تشاهدانه منذ البداية، وقد حاولتا اختطاف اللفافة من يده إلا أنه انطلق مسرعاً إلى حجرته، وأغلق الباب ثم قام بفك اللفافة ليجد حقة زجاجية بيضاء مطلية بنقوش نحاسية أنيقة وبداخلها

عطر عود نفيس.

في ذلك المساء دار نقاش كبير بينه وبين مارك الذي عرف ماحدث من مزنة و«روجا» حول الحب والشباب والدين والتوبة والحرية، وكل منهما كان يدافع عن وجهة نظره التي تعبر عن دينه ومجتمعه وانفتاحه. ورغم أن «مارك» كان مؤمناً بأن المسيحية - وهو المسيحي المحافظ على طقوس عبادته - تنهى عن هذا، كالإسلام، لكن حياته كقبطان عاش معظم حياته متجولًا في البحر وغريباً في دول الشرق. وكما هي عادة الغرباء حينما يعيشون وسط مجتمعات الغربة يصبحون أكثر جرأة وحرية.

وأكثر ما كان يشتت ذهن صابر هو حينما يربط كلام «مارك» بنصائح الشيخ طه، فكان يرتب في ذهنه كل جملة من مارك بنقيضها من كلام الشيخ طه. وكان واضحاً مدى التناقض في كل شيء، ماعدا في شيء واحد وهو حرص مارك على نصحه بالتوبة، لكن الفارق مع كلام الشيخ طه هو أن التوبة لدى الأخير تكون من ذنب التفكير قبل الوقوع في ذنب الفعل، بينما التوبة لدى مارك تكون بعد وقوع الفعل وتكراره. وكان أكثر ما شجعه في كلام مارك حينما كشف له سرًا بأن جارتهم رفضت استلام بعض الهدايا منه سابقاً، بينما قبلت هديته هو، فأشعل في نفسه هذا الكلام روح الغرور ونرجسية الرجل المؤمن بأن سيدة جميلة وقعت في سحره مع تواجد غيره من الرجال الذين رفضتهم، أو على الأقل رفضت بعضهم. فلا يوجد شيء يثير فخر الرجل بنفسه من إعجاب امرأة به ولو كذبا. لهذا تصبح العلاقات المحرمة السريعة مكانًا مثالياً لهذا الشعور ولو لثوانٍ قصيرة. وظل صابر يغالب النوم لوقت طويل في فراشه بعد أن قام

بدهنه بمحتويات حُقةَ جارته الزجاجية من العود الفاخر، لكنه في الأخير سقط في بئر عميقة من اللاإحساس والأحلام المتلاحقة في سماء وردية تنثر عطرًا نفاذاً ينتشر رذاذه في الأجواء ثم يتجمع في نقطة محددة لتشكل ملامح سيدة بضة الأعطاف بجسد نوري وملامح خلابة.

من باب رد الوفاء وحفظ الجميل، واظب صابر على زيارة الحاج أيوب العريقي في وكالته للسلام عليه، أو ليشتري منه ما تيسر من كميات البن التي يملكها الحاج الذي لم يكن مجرد تاجر فقط، بل كان خبيراً بكل مايتعلق بالبن من البذرة إلى البيع مروراً بمراحل نموه وتفرع شجرته ونضوج ثمرته وأماكن بيعه، حيث سافر إلى دول ومناطق عديدة. وعندما كان يتحدث يبدو وكأنه يتحدث عن حبيبته التي يهيم بها، وقد عرف صابر من خلاله مواسم زراعة البن وكيفية حصاده وتجفيفه وبيعه حتى يصل إلى الميناء خارجًا من جسد أمه التي ولدته وأخرجته للبشرية، أُمًا اسمها اليمن.

كان يخبره عن المناطق التي تزرع أشجار البن في معظم الجبال اليمنية حيث يكون أكثر إنتاجاً في المرتفعة والمتوسطة، وكيف ينمو على ضفاف الأودية الجبلية والمدرجات التي بناها الإنسان اليمني ليخضع الجبال له وبكيفها لخدمته، وكيف حفر اليمنيون الآبار وصنعوا السدود وشقوا القنوات لإرواء الأشجار، إذا لم تكفها الأمطار الموسمية، وأن للبن أعداء كقلة الأمطار وارتفاع الحرارة وشدة الرياح وانتشار الحشرات كالجراد

والقاشر والدبا والجرمي، لكن أخطر الأعداء هو الإنسان نفسه بجهله وظلمه ونشره للحروب واهتمامه بأشجار ونباتات أخرى لا فائدة منها ولا جدوى، وأخبره أن أشجار البن التي تروى من مياه البرك والسدود قد تثمر مرتين أو ثلاثة في العام لكن أجودها هي الأولى التي تأتي في موسمها الطبيعي ويتم بذر الثمرة كما هي بقشرتها في التربة ثم تنقل الشتلات إلى أماكن أخرى عند الضرورة. وأخذ يحدثه- بحكم خبرته- عن أماكن زراعة البن وطرق انتقاله من الجبال إلى المدن والأسواق داخل المناطق اليمنية وخارجها وسيأتي يوم تفتخر بها البشرية جمعاء بهذه الطرق، وأنه يحلم بيوم يخلد فيه اليمنيون والعالم طريق البن اليمني من خلال ذكر مساراته ودروبه ومحطاته البرية والبحرية والتي كان يعلمها ويعرف تفاصيلها.

أخبره أن الطرق البرية تنقل البن على سبيل المثال من يافع إلى عدن ومن يافع إلى قعطبة ثم المخا ومن عموم مناطق ذمار إلى المخا ومن صنعاء إلى المخا، وينقل البن من ريمة من مناطق وأسواق كسمة والحدية وعلوجة إلى بيت الفقيه وبعضها إلى المخا، ومن وصاب إلى بيت الفقيه، بحكم القرب مثل ريمة وبعضها إلى المخا ومن مناطق حاشد وبكيل إلى بيت الفقيه والمخا ومن خولان إلى بيت الفقيه ومن عموم المناطق في حجة إلى سوق الصلبة ثم إلى بيت الفقيه ومن مناطق صعدة إلى بيت الفقيه، ثم بعد شراء البن وتجميعه في بيت الفقيه ينقله التجار إلى الموانيء القريبة كاللحية والحديدة والغلافقة والفازة أو حتى إلى المخا وهناك من ينقله مباشرة إلى أبو عريش قرب جازان وصبيا حيث يقع بها سوق للبن من بيت الفقيه ومن مناطق حاشد وبكيل عبر نجران. وقد عاصر الحاج أيوب في

رحلات حجه بعض القوافل التجارية إلى مكة وسافر مع بعضها إلى القاهرة وكيف أن طرق القوافل البرية تسير من أسواق بيع البن في بيت الفقيه أو المخا لتنتقل إلى مكة والمدينة كأسواق بيع ولكن جدة سوق مهم للبيع ثم إلى دمشق وحلب والأستانة، ثم البندقية وباقي أوروبا ومن بيت الفقيه تسير قوافل كثيرة إلى الأحساء والقطيف أو إلى البصرة وبغداد وفارس والشام والأستانة كذلك.

توقف الحاج أيوب عن الحديث بسبب انشغاله بترتيب بعض البضائع القادمة، وقام صابر بمساعدته كما كان يفعل عندما كان حمالً،ا وبعد انتهاء عملهم جلس الحاج أيوب يخبره عن طرق النقل البحرية فهو لم يسافر عبرها لكنه يعرف كل البحارة وقصصهم وأخبارهم، فأخذ يحكي لصابر كيف تبحر السفن من المخا إلى جدة ثم السويس أو القصير فالقاهرة. وقد شاهد بنفسه في إحدى الوكالات قدوم بضائع لأحد التجار عبر مدينة السويس والقصير وبعض البضائع في القاهرة تباع لسكان مصر وبعضها يباع لتجار البندقية ثم باقي أوروبا أو شمال أفريقية، وهناك سفن تخرج من ميناء الحديدة ثم إلى جدة فالسويس والقاهرة ثم يتوزع من القاهرة عبر الإسكندرية ودمياط للبندقية وبلاد المغرب ونفس الأمر يحدث في موانيء اللحية والغلافقة وغيرها، فجدة والقاهرة أسواق بيع مهمة للبن اليمني.

وهناك سفن تبحر من المخا إلى عمان وبندر عباس أو بندر بوشهر أو البصرة ومثلها من عدن، ومن المخا تبحر السفن الأوروبية الضخمة إلى لندن وسورات في الهند وإلى سرنديب وجاوة وهي مدن تجميع لبضائع

الأوروبيين، بعدها تبحر إلى هولندا وإنجلترا وباقي أوروبا ولو طالت بنا الأعمار يا ولدي سنشاهد دولا أخرى ومدناً لم نسمع بها من قبل وقد عشت كل مراحل تطور تجارة البن يوم أن كان قلة من التجار ممن يأتي إلى بيت الفقيه وكذلك السفن الأوروبية القليلة التي كانت ترسو في ميناء المخا كل عام أو عامين.

كما أخبره أن هذه الطرق والتنقلات لم تكن تحمل في ثناياها السلع والبضائع من البن فحسب وإنما أتاحت أيضاً تناقل المعرفة والعلوم والأفكار والثقافات والمعتقدات بفضل العلاقات البشرية، ونقل اليمنيون الإسلام معهم لمعظم المناطق التي سافروا إليها نتيجة سفرهم واختلاطهم المتواصل مع سكان تلك المناطق مما أثر تأثيراً عميقاً في تاريخ شعوب المنطقة الأوروبية الآسيوية وحضاراتهم. ولم تكن ثمار البن وحدها هي التي جذبت المسافرين وسكان المناطق التي يمرون بها على طول طرق النقل وإنما التمازج الفكري، كان أيضاً سائداً في المدن المطلة على هذه الطرق وهم بدورهم جلبوا لمدننا الكثير من خبراتهم ومعارفهم.

* * *

فرار حول موانئ البن..

رأى صابر الاستعدادت الضخمة لاستقبال السفينة القادمة من «سورات » في الهند، لذا فقد كان كان عليهم الذهاب إلى مدينة بيت الفقيه لفحص البضائع التي اشتراها وكلاؤهم من السماسرة البانيان وشراء بضائع أخرى، ولأن صابر هو مرافق مارك الشخصي؛ فقد كان لزامًا عليه مرافقة مارك في سفره الذي طلب منه تجهيز نفسه بعد يومين لمدة أسبوع. وكان صابر قد سمع عن مدينة بيت الفقيه من التجار والسماسرة الذين يترددون عليها ويشترون منها احتياجاتهم من البن والتي وصفوها بأنها أكبر من المخا وسوقها عظيم ودائم طوال أيام الأسبوع، وكذلك سمع عنها من المشائخ وطلاب العلم. تذكر حينها أن عليه الذهاب للصلاة في الجامع الكبير وأخذ البركة والدعاء من الشيخ طه الشاذلي، فذهب ذلك اليوم مع قريبه عبدالله خفية من عمه كما اتفقا مسبقاً، فدعى له الشيخ بالسلامة والتوفيق ناصحاً إياه بحفظ الله في سفره كما يحفظه في مقامه. وقد اندهش يومها من إبداء الشيخ لرغبته بالسفر معهم لو كان متفرغاً، فكان يظن أنه يرغب في شراء البن مثلهم لكن الشيخ طه ابتسم لبراءة صابر قائلاً له:

- بيت الفقيه تنسب لإمام اليمن، وبركة الزمن، الفقيه الكبير الولي

الشهير، السيد الجليل ذي المناقب الزاهرة، والكرامات الباهرة أحمد بن موسى بن عجيل المعروف بالفقيه، وكان جدي أبو الحسن عمر الشاذلي يعتبره أفضل علماء اليمن من بين المتقدمين والمتأخرين وفقيههم البارز وقطب أقطابهم، ولم يأت من هو مثله في علمه وفقهه وتفرغه للعلم والعبادة، وكان يتمنى لو أنه لحقه لقبل قدميه ولازمه ملازمة الظل للجسد لكنه مات قبل مولده بستة عقود، فجاء إلى الدنيا وعلْم الفقيه بن عجيل يملأ التهائم وأخبار كراماته تعم تهامة وسائر اليمن من أعلاها إلى أدناها مما يعجز عنه العقل بالتصديق والإدراك، وفي كل سنة لي زيارة لضريحه والصلاة في جامعة وطلب الرحمة. فطلب من صابر الذهاب إلى الجامع الكبير في بيت الفقيه والدعاء له في رحابه فهو في أشد الحاجة للدعاء وطلب البركة من الشيخ. ثم أعطى صابر قفة تحوي بعض الأطعمة المحلية كهدية لشيخ الجامع علي بن عجيل وهو من نسل الشيخ بن عجيل.

وقبل أن يعزم «مارك» وصابر على التحرك إلى بيت الفقيه وصلت الأخبار عن خروج شخص يدعى المحطوري على الإمام الذي أصبح يلقب بالمهدي بدلاً عن ألقابه السابقة الناصر والمنصور وقام المحطوري بالسيطرة على الكثير من المناطق في حجة، كما أنه استولى على سوق الصلبة الذي يباع به البن هناك وقام بقتل الآلاف من أبناء المنطقة والمئات من البانيان الهنود الذين كانوا يعملون في ذلك السوق ونهب أموالهم، ولم يكن أحد يعلم بنوايا المحطوري هذا خاصة أن الأخبار التي تأتي كانت تتحدث عن استخدامه للسحر والطلاسم وأن الرصاص لايؤثر

في أتباعه وأنه في الأخير سوف يسيطر على كل البلاد إن استمر على نفس السرعة في السيطرة والتقدم. لذا فقد كان الانتظار هو الحل الأفضل، لكن مع مرور الأيام أدرك الجميع أن نيته هي السيطرة على صنعاء والمناطق الجبلية بعدما استحوذ على كل المناطق المحيطة بحجة عن طريق المكاتبة أو الحرب، وقد أصبح يملك جيشًا كبيراً من المجاذيب وأبناء القبائل، فصدرت الأوامر لهم بالتحرك إلى بيت الفقيه مع أخذ الحيطة والحذر ومتابعة أخبار المحطوري أولا بأول.

تحرك صابر مرافقاً لمارك على ظهر الخيول ويرافقهم اثنان من الخيالة وأربعة آخرين على البغال، وفي الأوقات العادية لم يكن يستلزم كل هذا العدد لولا الظروف المحيطة في المناطق الجبلية أثناء فتنة المحطوري على غير العادة، حيث أن الفوضى والحروب والتمردات في المناطق الجبلية لاتتوقف مطلقا. فمنذ أن تولى الإمام المهدي السلطة وهو يواجه عمليات التمرد والحروب من حكام المناطق أبناء عمومته وأقاربه الطامحين للحكم، بالإضافة لحروبه مع بلاد المشرق في يافع والبيضاء. لهذا لم تكن الحرب لتشكل تأثيرًا على المناطق الساحلية الهادئة جدًا والتي لا تحتاج إلى الكثير من الجنود، لكن فتنة المحطوري كانت مختلفة عن بقية الحروب وأخبارها كانت تثير الفزع في الجميع بعد مقتل البانيان مما جعل أشقاءهم من بقية الهنود في المخا يصابون بالخوف الذي انتقل إلى الجميع بحكم ارتباط البانيان بالجميع من خلال أعمال السمسرة وصرف العملات والترجمة والوساطات التجارية المختلفة. وكان صابر يحمد الله أنه لم يكن هناك من يسير على قدميه من المرافقين، وكان مارك هو

الأوروبي الوحيد حيث استطاع أن يقنع السيد «فليتزوج» بأن صابراً بإمكانه تعويض مكان هولندي في السفر.

تحرك الموكب بعد صلاة الفجر، وكانوا يسيرون بشكل عشوائي داخل المدينة حتى تجاوزوا باب «فجير» أمرهم مارك بالانتظام. لم يكن يعرف صابر سبب اختيار مارك لهذه البوابة للخروج رغم أن جهة السفر شمالا، لكنه فسر الأمر على أن طبيعة البحار الحذرة في شخصية مارك تجعله يأخذ الحيطة والحذر في كل تصرفاته.

بدأ صابر يشعر بأنه قد أصبح معجباً بشخصية مارك بما أنه أستاذه والشخص الذي احتواه في هذه المدينة بعد تنكر عمه له، لذا فوجوده إلى جانب مارك يمنحه شعور الأمان والطمأنينة إلى جانب الحرية في العمل، وآداء شعائره الدينية، وهو مايعزز شعور الامتنان تجاهه.

أصبح الموكب يتجه شمالاً أخيرًا، وقد فضل مارك السفر عن طريق الداخل اختصارًا للوقت. وكان الطريق ممتدا أمامهم والرمل حولهم في كل مكان وكانت هناك الأشجار تتوزع حولهم في الطريق على قلتها، ولم يعد البحر ظاهراً على يمينهم حيث اختفى إلا كسراب خفيف في بعض الأماكن، والشمس أسفرت عن وجهها الأصفر بسرعة كبيرة، كانت قد استوت في موقعها من السماء وهي ترسل أشعتها على سطح الرمال اللبنية ليزيد من توهج الضوء حولهم. وكان صابر يقارن المشهد مع نظيره في جبال يافع الداكنة حيث تحتاج الشمس إلى وقت أطول حتى تسفر عن بهائها وسط نسيمات الهواء الباردة حتى في عز الصيف.

توقف صابر عن المقارنات الذهنية في مخيلته وهو يتأمل مارك والبقية، كان الجميع صامتًا وكل شيء يسير على ما يرام، إلا أنه لاحظ أن مارك ينظر إلى اليسار بشكل متكرر، كل بضع خطوات، فأخذ صابر بدوره ينظر إلى نفس الجهة، لكنه لم يلحظ شيئا، فاكتفى بالصمت الذي كان سائداً على الجميع إلا من أصوات وقع حوافر الخيول والبغال المكتومة على الرمال الناعمة مع صوت خشخشة صغير محبب للأذن.

هنا بدأ مارك بترديد الأغاني بلغته الهولندية وكان صوته عالياً وكأنه كان يحاول إبقاءهم يقظين، أو هكذا ظن صابر في البداية، قبل أن يلحظ مرة أخرى مارك وهو يكرر النظر على اليسار، كانت القصيدة من كلمات شاعر هولندا الكبير «أدريان فاليريوس» التي كتبها قبل عقود، كان صوته رخيماً رغم ارتفاعه، وبصوت يغلب عليه الحماسة وهو يغنيها كقرصان عتيق خصوصًا مع كلمات الأغنية التي تحمل حب الوطن والتضحية في سبيله والفخر أثناء مقاومة الإسبان في مدينته «بيرجن أوب زووم»(*):

«لاحظ مدى قوته في العمل
من يضع قوته من أجل حريتنا
انظر كيف يسخر نفسه، ويشق طريقه بقوة
لبضائعنا ودمائنا ومدننا
اسمعوا دقات الطبول الاسبانية

(*) القصيدة الهولندية لأول مرة تكتب باللغة العربية كتبها الشاعر الهولندي الكبير أدريان فاليريوس عام 1626م.

اسمعوا أبواقهم!
انظر كيف يأتون،
للسيطرة على مدينة بيرغن..
مدينة بيرجن أوب زووم ابقي قوية
تصدي للقوات الإسبانية
حافظي على أرضنا خضراء بجداولها
محروسة بالولاء
السيف الغاضب الدموي الشجاع
يتلألأ، ويبدو أن الشرر قد بدأ يتطاير منه.
الأرض تهتز وترتج، اضطراب الأرض
مفاجأة ورعد، ماكان بالأسفل أصبح فَوْقَ الأرض..
من خلال كل القصف والنار
ذلك الذي يسمع يوميًا
كثير من الإسبان اختبأوا غرقاً في دمائهم
مدينة بيرجن أول زووم ابقي قوية
تصدي للقوات الإسبانية
حافظي على أرضنا خضراء بجداولها
محروسة بالولاء.
جاء الأمير ڤان أورانج يقاتل الإسبان
ليصبح بطلاً يصد عنفهم في ساحة المعارك

وبمجرد أن سمع الجنود الإسبان ذلك هربوا مع كل قادتهم.
جاء هو من أورانج لمحاربة إسبانيا
لصد عنفهم كبطل في ساحة المعركة
وبمجرد أن سمعت سبينولا ذلك
يهرب بسرعة مع كل أسياده.

تقدم يا كوردو بسرعة،
لكن لم يستطع الفوز.
مشى الدون فيلاسكو مضطربًا،
لم يستطع فعل أي شيء
مدينة بيرجن أول زووم ابقي قوية
تصدي للقوات الإسبانية
حافظي على أرضنا خضراء بجداولها
محروسة بالولاء.. »

كانت الأغنية حماسية بالفعل وهو يردد كلماتها وكان لحنها يشبه أصوات الزوامل في الحرب في يافع، لكنها ستصبح أروع لو كان هناك أكثر من شخص يرددها لذا فقد قرر صابر أن يطلب منه تحفيظها له لغنائها معه في مرة أخرى، لكنه كان يغني معه اللحن مرددا نغماته:

- لا لا لا، لا لا، لا لا لا لا

ويبدو أن مارك أعجب بمبادرة صابر فصار أكثر نشاطاً في الغناء، وفي نفس الوقت كان قد أخرج مسدسه الهولندي القصير واضعًا إياه في يده بشكل متوارٍ عن الأنظار لكن صابر لم يكن يعرف سبب ذلك. يملك مارك الكثير من المسدسات والمسدسات طويلة العنق وكذلك الكثير من البنادق والسيوف وهو دائما مايصف الأسلحة الهولندية بأنها قوية بجودة صوتها وخطوطها النحيلة وتزاوجها المثالي بين البساطة والوظائف. في ذلك اليوم كان يملك مسدسًا طويل العتق ماركة «بيترميسين» بمقبض من خشب الأبنوس ومقوس بشكل يسهل حمله بيد واحدة، كما أنه يحمل سيفًا ذا حدين في حزامه من إنتاج مصنع الذخائر الملكية، مصنوع بالكامل من الحديد الزهر ومقبضه حلقة نص دائرية في جانب واحد ونصله مطرز ببعض النقوش البسيطة ومكتوب عليه تاريخ وهمي قديم. أما صابر ومرافقوه فقد كانوا يملكون سيوفاً محلية الصنع أثقل في الوزن، وقد سمع الكثير عن صناعة السيوف اليمنية عبر التاريخ التي طالما أخبر مارك عنها لكنه كان يتحسر. فبينما مارك يتحدث عن الحاضر ببساطة؛ يسرف هو في إخباره عن الماضي بافتخار. وقد أخبره عن أن السيوف اليمانية كانت مضرب الأمثال عند العرب بقوتها ومتانتها خصوصا السيوف «اليرعشية» نسبة إلى الملك شمر يهرعش وكان منها سيف النبي ذو الفقار وسيف الصمصامة سيف الفارس اليمني معد يكرب، وتوارث أولاده من بعده صناعة السيوف وتشجيعها كولده الملك صيفي الذي تنسب إليه السيوف الصيفانية والخناجر وجميعها بمقابض من العاج الذي يجلب من أفريقية. أما مارك فقد طلب من مرافقهم علي

الصبري أن يغني لهم أغنية يمنية؛ باعتباره يحفظ الكثيرمن أشعار الحاخام سالم الشبزي التي يغنيها اليهود وباقي اليمنيين في الأعراس والمناسبات. وكان علي الصبري قد التقى بالحاخام «الشبزي» الذي كان منزله بالقرب من قريته وهو مزار للجميع: من يهوديين ومسلمين. فبدأ علي بالغناء بصوت رخيم فوق بغلته الفتية، وكان لحن القصيدة متسارعا يناسب سيرهم وحالتهم:

«يا عيطموس هجرك ثقل(*)
أبطيت يا ساجي المقل
روحي إليك قد انتقل

فارقتني ياخل مهجور
بالليل أمسي ساهري

أسلمتني في يد جمهور
أمره علي جائري

ليت الجنان دار الحياة
لها سبعة أبواب مبنية

(*) قصيدة ياعيطموس هجرك ثقل كلمات الحاخام اليمني سالم الشبزي المعاصر لزمن الرواية نقلتها من مصادر اليهود اليمنيين في إسرائيل.

تختص جواهر غالية

من احتصن عن كل محظور
روحه تضل كالطائري

تم قولنا في خط مسطور
الله يسلي خاطري.. »

قرر صابر في نهاية المطاف مع انتهاء علي من الغناء أن يتحرك بحصانه حتى أصبح بمحاذاة مارك، فأشار إليه بطرف عينه مع حركة من يده تفيد الاستفسار عن الأمر، هنا لم يكن أمام مارك إلا أن توقف عن الغناء وهو يقول بهدوء:

- دون أن تلتفت أو تتصرف بطريقة مفاجئة، هناك من يتبعنا منذ خروجنا من المخا

- حقا؟! هل أنت متأكد؟!

- أنت تهيني أيها الولد، لا تنس أني قرصان عتيق، إنهم على يميننا على مرمى النظر، وإياك أن تلتفت

- ماذا سنفعل؟

- سنقوم بتغيير خط سيرنا ونراقب ردة فعلهم، ابقَ هادئاً، ولا تخف، ولا تخبر رفاقنا بالأمر..

- أنت من تهيني الآن، ابن الجبال لا يخاف

ابتسم مارك وهو يشير بعينيه إشارة الثقة به وهو يتقدم بحصانه إلى الأمام بضع خطوات ثم يستدير مواجهاً رفاقه؛ قائلاً بصوت عالٍ محاولاً إيصاله لمن يتتبعهم:

- أيها الرفاق هناك تغيير بسيط في خط الرحلة، سوف نتجه إلى الساحل مجدداً ونتوقف في مدينة الخوخة للراحة والتزود من مياهها العذبة.

سأله صابر:

- هل الخوخة بعيدة؟!

- مع ظروف سيرنا وقدرة البغال على السير يفترض أن نصل ليلاً، وسننام هناك الليلة

انتهز صابر فرصة تحركه ونظر إلى حيث أشار له مارك، وبالكاد استطاع أن يلمح أشباحاً تتحرك من بعيد تحت سياط الشمس الملتهبة على وجه الرمال المائلة للبياض وكأنها مرآة تزيد من شدة انعكاس وهجها. كان يدرك أن مارك ينتمي إلى البحر، ورؤية المشاهد الممتدة أمام ناظريه بلا حواجز قد اكتسب معها قدرة الرؤية لمسافات بعيدة على عكسه هو القادم من منطقة جبلية يكون أفق الرؤية محدوداً على الرغم من تمتعه بنظر سليم.

كان مسيرهم يتجه إلى الغرب رويداً رويدا حتى لا يمنح ظهورهم لمن يتبعهم، كما أن التدرج في تغيير الوجهة يقلل من مسافة السفر بدلاً من

استهلاك الوقت في قطع المسافة بشكل أفقي باتجاه الغرب ثم العودة للسير في الشمال؛ خاصة مع عدم وجود عوائق طبيعية تمنع تقدمهم بهذه الصورة، بالإضافة لمحاولة جعل الأمر طبيعياً وعدم إثارة متتبعيهم إن أحسوا بالخطر أو أنهم يحاولون الفرار. كان مارك كشخص متمرس يجيد أسلوب المراوغة كما كان يفعل أثناء عمله بالبحر. كانت المواجهة هي السائدة لكن الهرب في حالة عدم معرفة الخصم أو قوته هي مواجهة من نوع آخر، فحالما يكشف خصمه من حيث قوته وعدده ستكون المواجهة هي نهاية المطاف إن كان هو الأقوى، مالم يضطر إلى المواجهة مبكرًا. كما أن عامل التوتر وترقب ردة فعل المتتبعين مرهقاً ويشغل كامل تفكيرهما.

المسافة بين المخا والخوخة تقدر بمرحلة، وفرسخين قد تزيد ميلًا أو ميلين بسبب تغيير الاتجاه، لذا فهي قريبة جدًا، أما هو فكان مايهمه هو ومرافقوه أن المسافة لاتسمح لهم بالقصر والجمع في الصلاة، فقد أخبره الشيخ أن ذلك يجوز إذا تجاوزت المسافة مرحلتين، لذا فقد كانوا يتوقفون للصلاة عند الظهر ثم عند العصر، بينما كان مارك يحرسهم بهدوء ولم يلحظ المرافقون أية تحركات غريبة، فقد كان هدف مارك هو عدم تشتت الأمر عن الهدف الرئيسي وهو الوصول إلى بيت الفقيه فقط.. وقبل الوصول إلى الخوخة بأكثر من فرسخين مروا على مدينة صغيرة تدعى موشج توقفوا لصلاة المغرب في جامع كبير ذي خمس قباب ومئذنة بيضاء كلون المسجد يدعى جامع علي. بقي مارك كالعادة يحرس متاعهم ولم يلحظ المتتبعين حوله لكنه كان متأكدا من أنهم يراقبونهم ومن أنهم لن يهاجمونهم داخل مدينة. وبالقرب من مسجدها وبعد الصلاة استأنفوا

السير حتى وصلوا الخوخة بعد العشاء، فاتجه بهم مارك إلى ساحل القطابا حيث سيمكثون هناك.

اكتشف صابر أن السيرعلى حصان طوال يوم كامل بالنسبة إليه يشكل جهداً بالغًا. تمنى أن يتجاوز آثاره بسرعة. بعد صلاة العشاء نام الجميع بالقرب من البحر في منزل يملكه أحد البانيان يدعى «كالو» يعرفه مارك منذ فترة طويلة نظير مبلغ مالي، وكالو يعمل في تجارة البن وصرف النقود كبقية الهنود في المدن والموانيء اليمنية والخوخة رغم أنها ميناء صغير، لكن بسبب قربها من المخا وبعض مناطق البن يفضل بعض القادمين من الديار العربية وغيرها إرسال البن منها عبر السفن الصغيرة إلى موانيء أكبر قريبة وبعيدة كصبيا وجدة.

في صباح اليوم التالي قرر مارك البقاء ليومين في المدينة، دون إبداء الأسباب الحقيقية لكن صابراً بطبيعة الحال كان يعرف السبب، وقد أمرهم مارك بالتحرك في أنحاء المدينة بحرية شريطة ألا يبقى أحدهم منفرداً؛ حيث يكون مع كل منهم شخص أو أكثر، لذا كان على صابر مرافقة مارك طيلة اليوم.

فوجئ صابر بجمال الخوخة وطبيعتها الساحرة حيث مياهها الزرقاء تعطي منظراً خلابًا مع رمال الساحل البيضاء وحيث يتلاقى البحر مع أشجار النخيل و«الدوم» بصورة مدهشة فلا تبعد عن البحر سوى بضع خطوات، وعندما تساءل صابر عن صمود أشجار النخيل رغم الملوحة، عرف من البانياني كالو أن الماء العذب متوفر بكثرة حتى بالقرب من البحر ودون عناء في الحفر، طلب منهم كالو أن يتبعوه إلى مقربة من خط أشجار

النخيل القريب من البحر، وهناك قام بالحفر بيده مقدار ذراع أو أكثر بقليل وقام بإخراج يده مليئة بالماء ليشرب منه. كان الماء شديد العذوبة والصفاء. وقع صابر في حب الخوخة وهي على جمالها يغلب عليها البساطة وعلى أهلها التواضع والجدية في العمل. فهم إما صيادون أو يعملون في تجارة البن بين بائع وحمال وبحار. وفي غير مواسم البن يعملون في صنع الأحصرة لبيعه إلى باقي قرى ومدن تهامة خصوصاً مدينة حيس التي تبعد عنهم خمسة فراسخ. استطاع صابر أن يتجول رفقة مارك في أنحاء المدينة الصغيرة حيث أن معظم بيوتها عبارة عن عشش وكل عشة تقع في حوش صغير مصنوع من سعف النخل كالعشة. وأثناء التجول كان مارك شديد الحذر وهو يحاول أن يلمح متابعيهم لكنه لم يلحظ أي تحركات مريبة حولهم. صلى صابر في جامع الخوخة الكبير وقد عرف أن الملك المظفر يوسف بن عمر الرسولي بناه، وبعد الصلاة تجولا في سوق المدينة حيث تقع عمليات شراء البن بإشراف حاكم المدينة واحتساب الضريبة وهي على قلتها لكنها تنعش المدينة وسكانها الطيبين.

عرف صابر أن معنى اسم المدينة هو النافذة. كانت الخوخة نافذة جميلة على البحر أوهي نافذة ساحرة على البر كما يشاع بأنها نافذة لمدينة حيس التي تبعد عنها أقل من نصف يوم باتجاه الداخل. سحر الخوخة جعله يقرر مع نفسه زيارتها في وقت لاحق عندما تسنح له الفرصة بذلك. وبعد بقاء يومين قرر مارك الانطلاق مجدداً بنفس الترتيب السابق على طريق الساحل؛ فسيكون عليهم السير بجدية أكبر لاختصار الوقت الضائع الذي قضوه في الخوخة الذي جعل جماله وسحرها يُنسي صابراً

أمر قطاع الطرق، وتخلص من حالة القلق الذي كان قد ملأ نفسه قبل أن تعانق عيناه هذا الجمال. كما أنه لم يعد يشعر بأثار الإرهاق من ركوب الخيل.

أصبح الطريق ممتدًا بلا انقطاع وسط الرمال التي تتراوح بين البياض ودرجاته والتي تخلو من الأشجار والمرتفعات والمدن إلا من عشش صغيرة في بعض الأماكن لبعض الصيادين للمناطق المجاورة. وبعد أن تجاوزوا الخوخة بفرسخين أشار أحد المرافقين لهم من أبناء تهامة إلى جهة الشرق حيث تظهر الجبال اليمنية الشامخة بتدرجات لونية رمادية مختلفة في الأفق البعيد كأنها لوحة خيالية لأشباح ضوئية ثابتة برسوخ، فقال وهو يشير إلى الشرق:

- على بعد ستة فراسخ من هنا تقع مدينة حيس مع نهاية الجبال، بعدها إلى الخلف هناك تقع جبال العدين وإلى الجنوب هناك تقع مقبنة ثم موزع نزولًا باتجاه المخا وإلى الشمال من حيس تبدأ جبال وصاب وجميعها مناطق مهمة لزراعة البن، لكن الأهم هي جبال ريمة وهي تقع إلى الشمال من وصاب وأسفلها تماماً مع نهاية الجبال تقع مدينة بيت الفقيه حيث سنذهب، وفي ريمة يوجد سوقان مهمان للبن هما «الحدية» و«علوجة».

ولأن مارك قد ذهب سابقاً إلى الحدية كما أخبره فقد شاهد الكثير من التجار العرب والهنود وغيرهم في ذلك السوق الذي يقع في وادٍ كبير في بلاد اسمها الجعفرية. مر يوم طويل جداً خالٍ من الأحداث والمفاجآت عكس ماكان يتوقعه مارك الذي كان يترقب هجوم قطاع الطرق عليهم،

لكنه لم يلحظهم حتى، وهو ماجعله يظن أنهم أضاعوهم. وفي الطريق مروا على بلدة صغيرة على وشك الاندثار تدعى الأوهاب عرفوا بأنها كانت ميناءً مهماً في الماضي القريب وأصبحت قرية صغيرة للصيادين والمسافرين. ثم وصلوا إلى ميناء صغير يدعى الفازة مع صلاة العصر، وله مسجد أبيض من الياجور بناه معاذ بن جبل كما عرف، وبه ضريح شيخ صوفي يدعى أحمد الفاز، يقع على تلة مرتفعة على البحر وضريحه ملاصق للمسجد.

جلسوا بعد صلاة العصر قرب المسجد لأخذ الراحة والموج أسفلهم يضرب سفح التلة بشكل بديع، مع جو بديع والماء عذب وقريب من الأرض والبحر. وقد أصبحت المنطقة تدعى بمدينة الفازة نسبة لصاحب المسجد وأصبحت ميناءً مهما في عهد الدولة الملك الناصر الرسولي الذي أرسى دعائم الميناء لاستقبال السفن الصينية التي كانت تحمل وفدها إلى الملك الناصر قبل ثلاثة قرون والمدينة -في الجمال- تقارب الخوخة. وبعد أخذ قسط من الراحة قرر«مارك» المبيت في الفازة أيضًا على أن يستمر في السير فيبيت في غيرها من المدن على البحر؛ خاصة أن ميناء الغلافقة يبعد بضعة أميال وسيصلونها في وقت متأخر من الليل وهم مرهقون. لكن هدف مارك الحقيقي هو إضاعة الوقت في المدن كي يخدع الملاحقين لهم الذين اختفوا، ولكن الاحتياط واجب.

كان ساحل الفازة جميلاً ولا يقل عن الخوخة جمالا ولكن مدينته أصغر. وفي الصباح غادر موكبهم الصغير وكان صابر يُمني النفس بالاتجاه إلى مدينة زبيد والصلاة هناك بجامع الأشاعرة والتبرك بأضرحة الصالحين هناك، لكن مارك قرر استمرار المسير على الساحل و الاتجاه إلى ميناء

غلافقة الذي وصلوه بعد الظهر وهو ميناء زبيد التاريخي. كما أن الميناء أصبح صغيرًا مع مرور الوقت وكانت المدينة مخلافًا من مخاليف اليمن قبل سيطرة العثمانيين؛ لهذا فقد اضمحل دورها مع الوقت مع تنامي أدوار ميناء الفازة. وبما أن الوقت كان مهماً بعد إضاعة الكثير منه فقد قرر استكمال السير إلى بيت الفقيه التي تقع إلى الشرق تماماً على بعد نصف مرحلة. فعلى الأقل لن يأتيَهم الخطر من ظهورهم، رغم أن مارك كان دائم التذمر من عدم وجود مضافات تنشئها الدولة ويسميها اليمنيون «السماسر» وهي موجودة في بعض المناطق الجبلية وربما يمنع ذلك جو تهامة الحار. كما أن مناطق تهامة قلية الفوضى وآمنة أكثر من غيرها. وكان مارك- في طريقه إلى رداع سابقاً عندما زار الإمام في عاصمته الخضراء التي بناها ولم يستقر بها قبل أن يتحول إلى المواهب في ذمار- قد مربعض السماسر في العدين وتعز وأخذ يشرح لصابر شكل السمسرة المكون من مبنى حجري له أبواب يستخدمها المسافرون للمبيت: هم وبضائعهم وجمالهم وتغلق أبوابها مساءً من قبل السمسري صاحب السمسرة مقابل مبالغ معينة متفق عليها؛ بالإضافة لتقديم الطعام من خبز الذرة والأرز والزبدة والقهوة الذي تعده زوجة السمسري.

* * *

المسير إلى بيت الفقيه..

مع انتهائهم من صلاة الظهر بدأ الموكب بالتحرك إلى بيت الفقيه من ميناء الغلافقة.

وعندما قام صابر بتأليف كتابه المهم عن تاريخ البن ومدنه وموانيه بعد سنوات طويلة قد عرف أن «الغلفق» هو طحلب البحر.

أصبحت الرمال تختفي مع مرور الوقت وتظهر تربة زراعية رويدا رويدا وأشجار النخيل تزداد حتى وصلوا إلى مشارف بيت الفقيه قبل المغرب بوقت كافٍ، ولم يشاهد صابر ملامح مدينة كالمخا لكنها مختلفة تماماً، رغم أنها أهم أسواق البن في اليمن ومعظم البن يمر عبرها، إلا أن العشش كانت تشكل معظم المنازل حيث تنتشر بشكل عشوائي في كل مكان وفي أي اتجاه دون وجود للشوارع المصفوفة مع وجود عدد من المنازل المبنية بالياجور والمطلية باللون الأبيض مع الكثير من الزخارف حول العقود والنوافذ.

لم يكن الجو حاراً مع نهايات شهر رجب من ذلك اليوم الذي يوافق بداية العام وفق التقويم الشمسي الذي يتبعه مارك؛ لذا كان الشعور بالراحة في أجواء المدينة مسيطرًا حيث سكنوا في إحدى العشش التي

يقوم سكان المدينة بتأجيرها للزوار الذين يأتونها من كل مكان، فقد شاهد صابر أشخاصاً من العراق والأحساء والقصيم ومصر والحجاز والشام وكان يفرح كثيراً عندما يلتقي بأحدهم من مكة أو مدينة الرسول عليه الصلاة والسلام؛ بالإضافة لذلك كان هناك أناس من المغرب وأتراكاً وفرسًا ومن عمان: بعضهم جاءوا برًا، وبعضهم جاءوا عبر البحر في الموانئ القريبة كالغلافقة، والحديدة واللحية أو حتى ميناء صبيَا، أو يذهب بعضهم إلى الأسواق الداخلية في الجبال كأسواق الحدية وعلوجة في ريمة التي لا تبعد كثيراً عن بيت الفقيه، ويتم السفر إليها عن طريق حيس، وكذلك أسواق الصلبة التي سيطر عليها صاحب الفتنة المحطوري.

ولأن التنافس كان شديدًا فقد ارتفعت أسعار البن بشكل مهول، مما أصاب مارك بالغضب. ولولا أن وكلاءهم من البانيان قد اشتروا الكثير من البن سابقا، لما تمكنوا في خضم المنافسة من أن يشتروا شيئا، وربما لن يتمكن من شراء الكثير في ظل غلاء الأسعار خشية من أن يتعرض للعقاب من قبل الشركة الهولندية التي لن تتوانى من معاقبة الفاسدين بتهمة السرقة.

مايميز المدينة كان سوقها العامر المزدحم بالتجار والبائعين والسماسرة والحمالين ورجال حاكم المدينة في الجمرك؛ حيث كان السوق يتكون من قاعتين وفي كل قاعة ممرات طويلة يتوزع فيها الجميع وفي نهايتها مسطبة مرتفعة يجلس عليها حاكم المدينة في أحيان كثيرة وحوله الجنود والمساعدين وإن غاب ينوب عنه المشرف على السوق نيابة عنه. وكان حاكم المدينة عزالدين المنوفي من أهل مكة- وهو رجل علم - كان قد قدم

إلى اليمن وأصبح مقرباً من الإمام المهدي ويثق به. والمنوفي رجل ثري وكان يأخذ ضريبته من كل عملية شراء وسمسرة تجري. كما أنه يقوم ببيع بعض البن لصالحه، وقد شاهده صابر في الكثير من الأيام التي مكثوها في المدينة والسوق، كما أنه كان من ضمن الذين استضافهم الحاكم المنوفي في قصره بالمدينة من ضمن مجموعة من الزوار الذين جاءوا من أصقاع الأرض، وكانت وليمة ضخمة تثبت مكانة المنوفي وثراءه وموقع المدينة كسوق هائل للبن.

تتم عملية الشراء بشكل مباشربين البائع والمشتري مع وجود السماسرة البانيان الذين يتولون الترجمة بين التجار اليمنيين وباقي الجنسيات التي لا تتقن اللغة العربية. وكانت الترجمة خليط من عدة لغات.. بعد أن تأكد مارك من جودة البن الذي تم شراؤه قبل وصولهم، كان لزاماً عليهم التحرك لشراء كمية أخرى وكان صابر رفقة مارك يجولون في السوق عندما لمح مارك ثلاثة رجال يسيرون في أنحاء السوق عرف من ألوان ملابسهم أنهم من كانوا يلاحقونهم بعد خروجهم من المخا. فطلب من صابر استكمال عملية الشراء للذهاب في جولة بالسوق دون أن يخبره عن سبب ذلك.

فوجئ صابر من قرار مارك؛ حيث أنها المرة الأولى التي يشتري بها البن ولم تكن لديه الخبرة بطريقة الشراء لكنه خشي من غضب مارك إن عاد دون أن يتمكن من الشراء وفي ذات الوقت كان يخشى غضبه إن لم يكن البن بالجودة المطلوبة، لذا فقد قرر أن يبدأ بالشراء تاركًا حرية التصرف للسمسار الهندي مع مراقبته فيما يفعل ريثما يأتي مارك الذي لم يعد حتى

موعد نهاية معاملات السوق في ذلك اليوم. ومع وجود حالة القلق من غياب مارك بالإضافة إلى حالة القلق من صعوبة عملية الشراء والوزن ودفع الأثمان والضريبة والبقشيش، وهي عمليات كانت معقدة على عقل صابر الصغير وقليل الخبرة والحيلة.

استطاع صابر أن يشتري عشرة بهارات من البن بعد ان أقنع نفسه بأنه قد شهد شراء الكثير من البن في المخا ويعرف طريقة الشراء وفحص البن لخلوه من الماء أو البلل؛ حيث كان مارك قد أخبره سابقا في المخا أن البن المبلول يسبب الضرر مع طول التخزين على ظهر السفن لعدة أشهر. فكان صابر يقوم بإدخال يده في الزكيبة التي تحوي البن إلى أسفله عدة مرات في جميع جوانب الزكيبة المصنوعة من الحصير وبعد أن يقوم بفحص البن يضع الزكيبة جانبا ثم يفحص البقية. قام صابر بإرجاع بعض الزكائب وبعضها لم يكن به أي عيب سوى شدة تدقيقه والإيحاء لمن حوله بأنه يملك الخبرة، وربما يكون قد استطاع أن يقنع السمسار والبائعين بذلك وبعد أن قام بفحص الكمية التي يريد شرائها من كل تاجر، كان عليهم الذهاب إلى حيث مسطبة الحاكم في أول السوق حيث تجري عملية الوزن تحت إشرافه، ويمنع منعًا باتاً إجراء عملية الفحص والوزن خارج نطاق السوق ودون إشراف الحاكم الذي كان يجلس على المسطبة المرتفعة، وعملية الوزن تتم على الأرض أمامه، ولديه عمال وكتبة يسجلون كل عملية وقيمة البضاعة وضريبة الدولة.

كان عمال السوق يقومون بوزن البضاعة من خلال أحجار ملفوفة بالقماش وكل حجر يحمل وزناً معيناً يعرفونه وبعد التأكد من الوزن يقوم

صابر بدفع الأموال للتاجر. وكان الوزن في ذلك العام قد بلغ 50 ريالاً للبهار الواحد، ونصف ريال عن كل بهار (بقشيش للسمسار) بما يعادل واحد بالمئة. وقد شاهد صابر التاجر والسمسار يدفعان جزءًا من أموالهم التي اكتسبوها للحاكم قبل أن يدفع هو 3 بالمائة من عملية البيع كضريبة للسوق التي تسمى بضريبة الإمام ثم واحد ونصف بالمئة ضريبة للعمال والكتبة، بينما كان هناك من يدفع ضريبة خمسة بالمائة لكن الاتفاقية مع الهولنديين منذ أيام العثمانيين ماتزال سارية مثلهم مثل الإنجليز.

انتهى ذلك اليوم وقام صابر بأخذ زكائب البن إلى العشة التي استأجروها رفقة أصحابه المرافقين له، ومارك لم يعد بعد وهو ماسبب له قلقًا كبيرًا انتقل بدوره للمرافقين، وهم يعلمون بأنه لو حدث لمارك شيء فستكون عواقبه وخيمة عليهم جميعًا، فلربما يتم اتهامهم بقتله وسرقته. لذا فقد قام بتقسيمهم على مجموعتين والبحث عنه في أرجاء المدينة على أن تكون العودة بعد صلاة العشاء. بعد العشاء عادوا جميعا إلى العشة وكانت مجموعة صابر وصلت تالياً بعد المجموعة الأولى ليجد رفاقه في حوش العشة يضحكون وهو ينظر إليهم باستغراب وغضب شديدين، وأحدهم يشير له بأن يدخل العشة ليجد مارك على أحد الأسرة يغط في نوم عميق وهو مندهش وقد تحول الغضب إلى حالة هستيرية من الضحك، يخرج بعدها إلى الحوش لينضم إلى رفاقه في الضحك قبل أن ينام الجميع بعد يوم حافل ومليء بالقلق والنشوة.

في فجر اليوم التالي عادوا جميعا إلى سوق المدينة، وأثناء تناول الفطور في أحد مقاهي المدينة أخبرهم مارك بما حدث له حينما لمح

الأشخاص الذين كانوا يتبعونهم وكان قد عرفهم من ألوان الملابس التي يرتدونها فأحدهم يرتدي عمامة حمراء بينما يرتدي آخر رداءً أصفر اللون وبالتالي فمسألة تمييزهم كانت مهمة سهلة بالنسبة لمارك؛ خصوصا وأنه شاهدهم سابقًا في وكالة الحاج أيوب العريقي، ودون أن يتمكنوا من ملاحظته، استطاع ملاحقتهم حتى عرف المكان الذي يقيمون به (في منزل يستأجره تاجر من المخا) وعندما سأله صابر عن هوية الأشخاص والتاجر، ابتسم مارك وقال له:

- سأخبرك في وقت لاحق..اطمئن..

- يوم أمس تركتني في السوق أضرب أخماساً في أسداس.

- كنت أعلم أنك لن تشتري الكثير لا تقلق. لكن عملية تأميننا أهم من الشراء.

نهض مارك وهو يشير إلى الجميع بالنهوض حاثاّ إياهم:

- هيا يا رفاق، أمامنا يوم عمل طويل.

كان التنافس شديداً خصوصاً من قبل المصريين ووكلائهم وكذلك التجارمن «جدة» وبعض الأتراك، كما أن هناك قلة من الفرس والأكراد إلى جانب الهنود والانجليزيين ومارك الهولندي. كانت مدينة بيت الفقيه تضم العالم كله وتغذي العالم من خيرات اليمن وتمنح الآفاق رائحة البن اللذيذة، كأكبر سوق للبن في العالم كله.

استمرت عمليات الشراء لعدة أيام وبسبب حجم التنافس الشديد قرر مارك شراء الكميات المعروضة مهما كانت قليلة حتى لو كانت تعد

بالفراسلة. وكان صابر قد امتلك الخبرة في معرفة الأوزان واختلافاتها: فالبهار يعادل 750 رطلًا والفراسلة 40 رطلاً في بيت الفقيه وفي المخا 24 رطلاً. وكان مارك يشتكي دائماً من اختلاف الأوزان حتى بين المدن المتجاورة، رغم أنها جميعها تعود إلى دولة واحدة. وكان للهولنديين وزن آخر يوزنون به بضاعتهم بأنفسهم وهي بالرطل الهولندي، وهناك من يستخدم مسمى البالة، لكن عملية الوزن الخاصة بالهولنديين تتم في مصنع الشركة في المخا. ودائما ماكان مارك يقول «إن هذه الاختلافات تعيق وتصعب من حرية العمل والتجارة، بالإضافة إلى وجود عشرات العملات اليمنية حيث أن كل حاكم منطقة يصك العملات لحسابه ولم يكن مهمًا أمام الإمام المهدي سوى أن يعترفوا به إماما وإرسال الأموال التي يطلبها منهم، ولا يستطيع أن يمنعهم باعتبارهم من أقاربه كإخوته وأبناء عمومته. وكان الأهم لديه أن يدفعوا له الضريبة وهم بدورهم كانوا يغشون في صك العملات ويمزجون الفضة بالنحاس بالحديد. ولم يكن أحد يستفيد من كل هذا أكثر من البانيان الهنود الذي أجادوا عمل صرف العملات وتحويلها وحسابها وكذلك معرفة الأوزان واختلافاتها بين كل منطقة وهي مهنة صعبة.. » لهذا لم يكن مارك يستغني عن الهنود في كل تنقلاته مثله مثل كل التجار.. وفي خضم عمليات البيع والشراء كانت الأخبار تصلهم عن تحركات المحطوري ومايشاع عن سحره هو وأتباعه حتى أن الرصاص لا يؤثر بهم وأصبح يسيطر على المناطق بكل سهولة ودون عناء ويرتكب المجازر في كل مكان يقاومه، ولا أحد يدري إلى أين سينتهي المطاف لكن الجميع كان خائفاً- بمن فيهم الأجانب وغير المسلمين-

بعدما قام بقتل الهنود واليهود في سوق الصلبة وحجة وشهارة بالإضافة إلى أبناء القبائل اليمنية في تلك المناطق. وقد وصلت الأخبار أن الإمام في مقره الجديد الذي أنشأه في ذمار وأسماه بقصر المواهب كان خائفًا يترقب ويسير الجيوش إلى صنعاء وماحولها للتصدي للمحطوري. وقد ساهمت هذه الأخبار بقلة المعروض من البن في بيت الفقيه مع زياردة التنافس. وبعد أسبوع كامل من التواجد في بيت الفقيه كان مارك يبعث بالرسائل إلى مكتب الشركة في المخا بشكل مفصل، وكان يدون كل تفاصيل الشراء والأوزان والعمولات ونوعيات البن وحتى أنواع الزكائب والجوالات.. في نهاية الأسبوع قرروا التحرك إلى المخا بعد أن قاموا بتجميع البن ووضعه في زكائب مخصصة لوضعها فوق الجمال تسمى بالعدل مكونة من جانبين متساويين وكان العدل يحمل نصف بهار مقسم بالتساوي بين الجانبين، بعد استئجار الجمال المخصصة لذلك وهي عملية مرهقة ومعقدة لأن أصحاب الجمال كانوا يفضلون تأجيرها إلى المواني‌ء القريبة كالحديدة واللحية على أن يذهبوا إلى المخا البعيدة والعودة بدون بضائع من هناك؛ لأن البضائع تنقل من بيت الفقيه إلى المخا وليس العكس ثم تبدأ عملية البحث عن زبائن آخرين مع ضياع الوقت رغم أن تهامة أصبحت بفضل البن وحركة التجارة الضخمة أهم أسواق الجمال في سائر الجزيرة العربية، ولكن حجم الطلب كان كبيراً على الكراء أو الشراء حيث يقوم التجار من المناطق البعيدة في الشام والبصرة والأحساء بشراء الجمال لبعد المسافات التي لايصلح معها الكراء، لذا كان على مارك اتخاذ قرار سريع بأن يرفع سعرالكراء للجمال أو يقوم بشرائها أو أن يسافر إلى المخا

عبر البحر من ميناء الغلافقة الأقرب. فكان القرار الأخير هو الأنسب في تلك المرحلة مع ظروف الحرب في البلاد وكذلك ملاحقهم، كما أن ميناء الغلافقة أقرب من مينائي الحديدة واللحية وهو ما يشكل عاملاً مغريًا لأصحاب الجمال.

لذا فقد أصبح موكبهم هذه المرة كبيراً؛ فبالإضافة إلى موكبهم الرئيسي كان يرافقهم خمسون جملاً تتْبع أربعة أشخاص. وقد تحركوا إلى الغلافقة بعد الفجر حتى وصلوا في مساء نفس اليوم ودون تأخير. قاموا بالبحث عن القوارب الجاهزة للإبحار من قوارب الصيادين في الساحل وهي كثيرة، ولن تكون هناك مشكلة في تأجيرها ولا في الأسعار حيث إنها متوقفة، كما أن لا أحد يستخدمها أحد لنقل البن في ظل وجود الجمال وانتشارها في عموم تهامة، فلا توجد منطقة في عموم اليمن والجزيرة العربية تمتلك جمالاً أكثر من تهامة: يتم بيعها وتأجيرها لتجار البن.. قاموا باستئجار 15 قارباً صغيرًا بأشرعة أحادية توزعوا بها لتنطلق فورًا.

كانت الرحلة الأولى لصابر عبر البحر في تجربة ملهمة وثرية ونسيمات البحر الباردة في هذا الوقت من العام تداعب وجهه الطفولي، وهو يحاول أن يرسل ناظريه بين ظلمات الليل وأمواج البحر السوداء عندما تناهى إلى مسامعه صوت مرافقهم علي الصبري وهو يغني أغنية من كلمات الحاخام سالم الشبزي(*):

(*) قصيدة يا أيها الظبي الشرود من كلمات الحاخام سالم الشبزي المعاصر لزمن الرواية نقلتها من مصادر اليهود اليمنيين في إسرائيل.

«يا أيها الظبي الشرود
سلم على صافي الخدود

من كل شيطان حسود
حوت خلي بالودود

أمسيت في ليل سعيد
مفتون في حال الجعيد

الله يعيده كل عيد
يقاربنا سعد السعود

ليتك ترى ذاك الجبين
هلال في نوره يبين

وكوكب الزهرة قرين
يلوح نوره بالحدود

شاهد رماني حاجبه
حير لقلبي جانبه

فقلت ياخل راقبه
فردوس بستانك يعود

بأعيانه نور الحياة
ذي في مقلها محظيات

فوق الوجون الورديات
ذي شهت كالعنبرود

شهت عنقه كالغزال
حبه في قلبي لا يزال

ماصح لي منه انعزال
ولا بقى فيني زهود

تابوت رضوان عالمه
رسم عليا خاتمه

وأنا قليبي نادمه
في وسط عدنان الورود

أزناده كالسبول
متهويات فوق الغيول

ووصلته يوم القبول
صحت بنانه كالنجود.. »

وبعد ست ساعات من الإبحار وصلوا إلى المخا أخيراً مع ساعات الصباح الأولى، وقاموا بإنزال الحمولة ووضعها في مخزن الشركة تمهيدًا لفحصها والتأكد من خلوها من العيوب والبلل مرة أخرى- حسب أوامر مارك- حتى تأتي السفينة المتوقع وصولها في أي لحظة وهي واحدة من أكبر السفن التي تصل إلى المخا، إلى جانب بعض السفن الإنجليزية التي أصبحت تزاحم سفنهم في البحار المختلفة. أما مارك فقد كانت أمامه مهمة أخرى تتعلق بمن كانوا يراقبونهم، فهو كبحار عتيد لا ينسى ثأره ولا يتكاسل عن مهمته.

بعد ثلاثة أيام فوجئ صابر بعمه يقف أمامه عند خروجه من المنزل، ولم يكن صابر يعرف نية عمه فتوجس خيفة بالبداية، لكن نفسه استكانت حينما بدأ عمه بالسلام والتحية، فبادله إياهما.. وبعد حديث طويل عن الأهل والبلاد وأواصر القرابة من قبل عمه طلب منه بتردد كبير- وهو يحاول أن يستجمع كرامته وعزة نفسه - بان يأتي لفحص البضائع التي سيشترونها منه. ولأن صابراً لم يكن يعرف شيئاً عن ذلك، فقد فوجئ بحديث عمه. وسأل عمه عمن طلب منه ذلك فأخبره بأن مارك جاءه قبل يومين وطلب منه بأن يأتي إليه لفحص البضائع وتسليم

الأموال.

أدرك حينها صابر أن مارك يخفي عنه شيئاً ما، وأنه لم يتصرف هكذا إلا لسبب آخر. وفي المساء سأله صابر فأجابه ببساطة:

- أردت إصلاح العلاقة بينك وبين عمك..

أشار صابر برأسه بمعنى الإيجاب قبل أن يستطرد مارك كلامه:

- كان عمك خائفاً عند دخولي عليه في الحانوت.

ابتسم صابر وهو يصيح متسائلًا:

- حقا؟!

اكتفى مارك بهز رأسه قبل أن يقول بثقة:

- كان يظن بأني ذهبت لافتعال المشاكل معه!

- يالك من مجنون؟ وماذا فعلت مع عمي حتى يتنازل عن كرامته ويأتيني؟

- لاشيء ذهبت إليه وأخبرته بأننا نريد أكبر كمية من البن يستطيع توفيرها خلال أسبوع

- هكذا بكل بساطة!!

مال صابر باتجاه مارك وهو يسأله مرتابًا:

- هل تخفي عني شيئاً يا سيد مارك؟!

تجاهل مارك سؤال صابر وهو يقول:

- لا أريد استمرار المشاكل بينكما، فأنتما في نهاية المطاف أسرة

واحدة.

بدت علامات الرضا على محيا صابروهو يسأله:

- ماهي ردة فعله عندما رآك في البداية؟

أخذ مارك يضحك بكل قوة وهو يقول:

- بعد أن أخبرته عن نيتنا بشراء البن بدت عليه اللهفة والارتياح.

ثم مال إلى صابر قائلاً له:

- عمك هذا حقير إلى درجة الاشمئزاز يا صديقي.

اكتفى صابر بالصمت فقد كان يعلم جشع عمه وطمعه وأن المال لديه أهم من كل شيء لكنه بالمقابل يكره من هو أفضل منه - خصوصا من أقاربه- وزاد من هذا وضع أبنائه فأصبح يكره كل الأقارب وأبناءهم. لكنه اليوم كان سعيداً بمجيء عمه وعودة العلاقات ولو بهذا الشكل الذي وضعه مارك، مع يقينه بأن مارك يخفي شيئا ما.

بعد أيام من عودة صابر من مدينة بيت الفقيه كان على موعد مع موقف محرج من المواقف التي أصبحت تتكرر مؤخرًا. فمع خروجه في الصباح الباكر إلى مصنع الشركة الهولندية شاهد الشيخ طه الشاذلي يمشي بسرعة متجهاً إلى منزل جارهم. أصيب صابر بالصدمة والذهول وأخذ يلعب على حبال الاستفسارات التي امتدت بين جوانب أفكاره حول ماذا يفعل الشيخ بمنزل جارهم؟ هل لديه صلة قرابة بجاره أو جارته؟ وحتى الكثير من الظنون السيئة أخذت تدور لكنه استبعدها، فلا يمكن

أن يقبل على الشيخ طه أي تهمة حتى في ظنونه التي تدور في ذهنه، لكن ماذا لو كان الشيخ طه قد تلقى شكوى من جارهم أو جارتهم بسبب تصرفاته هو؟!.. يا إلهي.

أصبح يشعر بالدوار وضيق التنفس ولم يكن يعرف كيف قضى يومه في العمل أو كيف انتهى يومه، لكنه قرر عدم الذهاب إلى الجامع الكبير حتى لا يقابل الشيخ طه، وصار يصلي فروضه في أحد الجامعين المتبقيين أو في المنزل وهو لايكلم أحدا من الناس. ولأن المرء عندما يكون في أوقات الخطر يرى كل الناس خصومه، وكل شخص يقترب منه يكون لهدف معين، وكأن كل العيون تراقبه وكل الأنفاس تمحو ظله وتطفئ وهجه، لذلك كان يحاول بقدر الإمكان تجنب الحديث مع الجميع سواء عبدالله المشغول بنفسه وبملذاته السرية أو مارك المنغمس في متابعة الأعمال في موسم الذروة السنوية قبل وصول السفينة، وفي المساء يخلو إلى نفسه يؤنبها ويناجي ربه بخوف. فلا يوجد أخطر من هفوات القلب وإغراء العين الناظرة في كيان فتي كان مغلقا عن كل لذة شهوانية، وكلما توغلت المتعة في قلب المرء أصبحت هي الجسد والخروج منها هو خروج أشبه بطلوع الروح. وقلة من يستطيع النجاة من متعه الشاذة، أما المتع الطبيعية فلكل امرء متعته أو متعه.

وقد عزم على قطع ما نشأ بينه وبين جارته، وكانت توبته صادقة لله بعد أيام من وخز الضمير. وما أصعب وخزات الضمير الحي المتحرك كماء البحر طاهر في نفسه مطهر لغيره، لكن التوبة الصادقة ينقصها صدق الفعل وموت السبب. ولأن السبب كان مغريًا نزقا في جسد امرأة يملك بين

أعطافه كل ما يجذب عين فتى بكر، جسد لا ينحني إلا لكي يرسل العطر في الأرجاء ولا يستقيم إلا لكي تثبت الأرض من تحته وتتحرك تحت الناظر إليه.

رغم كل ذلك استمرت جارته بإرسال الهدايا تلو الهدايا، وكان يراها في حجرتها تنتظره رغم تأكيده على مزنة وروجا بعدم قبول أية هدية يحضرها عبدها «أبريهام» لكن الذنوب تكون مغرية بمن يحسنها، والخطايا كالنعوش لا تسير من تلقاء نفسها إلى قلب صاحبها، بل يحملها المشيعون وهم يتراقصون على أنغام التبريرات وتهوين الكبائر حتى تصبح هفوات لابد منها. وليس من شيء يغري الشباب كاستنفار رجولتهم التي لم يسبق لهم أن اختبروها.

«كن رجلاً»

يكررها مارك في كل مرة يرفض الغواية، وكلما ضاق ذرعاً من ترديدها زادت في استثارته واستنفار كوامنه وتهوين الأمر على أنه مجرد لعبة. فحتى مارك نفسه لا يعرف شيئًا عن تلصصه على جارتهم، فلا يزال يحمل في قلبه بذرة نقية تمنعه عن المجاهرة بالذنب حتى لو كانت مع شخص يرى الأمر عادياً. ومع التكرار عادت لذة النظر تتسلل إلى سلوكه حتى أصبحت طقساً يوميا، وأصبح هو يترقب خروجها إلى فناء المنزل أو متابعة نوافذها عله يلمح شيئا من خلف روشان النافذة التي أمامه، كان يراها يوما وأياما لا يراها كان يكفي لأنه يصيبه بهيجان المشاعر الذي يبث فيه طاقة الترقب.

«اللعنة عليها »

يصيح غاضبا رغم استمتاعه في كل مرة يراها. أما هي فلا يبدو أنها تحس بوجوده فتظهر كأنها منشغلة بالعمل وتنظيف الحوش أو التشمس والتبرد، وجميعها أعذار تحاول معها إظهار أنوثتها لنفسها أولاً، ولأنها ذنبه الوحيد فقد كان يتابعها بنهم بالغ حتى تختفي ثم يعود إلى تأنيب نفسه في كل مرة، وكلما زاد تأنيب نفسه زاد متعة الذنب مع طبيعة النسيان التي يمتلكها المرء، وهو يعي أن الإنسان مجبول على النسيان ولكن ليس بشكل دائم، فالنسيان من نعم الله الكثيرة والمرء لا ينسى موت من يحبهم، لكن ينسى تذكرهم كل حين. وهكذا تصبح حياة المرة بين تذكر ونسيان تدور بلا انقطاع. كان يبكي عندما يأوي إلى نفسه خائفا من الله. وفي وقت آخر يكاد أن يبكي إذا لم يرها. وربما سيبكي قريباً مادام يسير في درب التولع وأن يصبح ذنبه عادة يومية لابد منها. وهكذا بين ذنب وإنابة سارت أيامه ونظرة واستغفار وفي كل مرة يقرر ألا يعود ويستمر في تأنيب نفسه لساعات طوال ويناجي ربه:

«سامحني يا رب، أنا عبدك المخطئ، وأنت من خلقتني بخطيئتي يوم اخترت تربتي. كانت ميتة في ثنايا جسدي فأحييتها أنا بذنوبي وابتعادي عن دربك، وما ظللت دربك إلا بسبب ظلام نفسي، فابعث لي ومضة من نور أهتدي بها إلى دربك..أنا أعلم أن الذنب الكبير لا يرتكب إلا من تراكم الذنوب الصغيرة، وقد كنت جاهلاً عن معرفة ذاتي وغافلاً عن إدراك نفسي من الوقوع بها. يارب إني عبدك الصابر «صابر» وقد استفقت بعد الوقوع فألهمني عزم الارتفاع وامنحني أجر العودة واغسلني بماء التوبة،

فهذه الذنوب تمنعني من التطهر وتعزز فيّ بشريتي الضعيفة الخائفة الهالكة، التي لولا نعمة التفكير في قدرتك وخلقك وشكرك ما رغبت بها هذه الإنسانية المثقلة بالنسيان والذنوب في أعماقي وإرث الذنب الأول. أنا يا الله عبد صغير ضئيل استفحل به الذنب فاسْود قلبه وأظلم جوفه وليس له إلا غفرانك.. فأستغفرك وأتوب إليك».

وبما أن الخطر الذي كان يتوقعه لم يأتِ بعد فقد بدأت تتسلل إلى دواخله إشارات التطمينات، كما يحدث مع كل متورط بتهمة. فبعد مرور أسبوع كان على قناعة تامة بأن الشيخ طه كان بإمكانه العثور عليه أو الطلب في استدعائه إن كانت له علاقة بزيارته لمنزل جارهم، لكن موجات التردد والخوف تعود من جديد فتبث في نفسه الشكوك بأن الشيخ يريد قطع علاقته معه وأن ظنه به قد خاب وأمله به انكسر. واستمرت معه هذه الحالة لثلاثة أيام أُخَر داوم معها على حالته بين ساعات التردد وأوقات الخوف وليالي الأفكار. أقنع نفسه أخيراً أن مواجهة الخطر أفضل من انتظاره، وقطع الشكوك أجدى من اللعب على تفاصيلها. فقرر الذهاب إلى المسجد والتصرف بشكل طبيعي ثم يراقب ردة فعل الشيخ. وعندما دخل المسجد راوده التردد والخوف مجدداً، فجلس بعد الصلاة في آخر المسجد شاردًا بخياله، ولم ينتبه إلا على صوت مطلق النجدي يلقي عليه السلام ويجلس إلى جواره، وأخبره بأنه دائماً ماكان يشاهده مع الشيخ طه وفي نفس الوقت أخبره طه بمعرفته عنه من خلال مايسمع.. ثم انطلق الحديث بينهما حين أخذ النجدي يحدثه عن معرفته بالشيخ طه منذ الصغر ثم ذهابه إلى مكة للحج وتعرفه على طلاب علم من الدرعية

عزموه على السفر معهم وتلقي العلوم الشرعية على يد مشائخهم، وعاش في كنف حاكمها محمد بن مقرن أبو سعود لمدة عشر سنوات كاملة: درس خلالها على يد فقهاء المذهب الحنبلي في الدرعية والعيينة حيث يقيم الشيخ سليمان بن علي وولده عبدالوهاب ومشائخ آخرين. وأخذ يحدثه عن بيوت الطين الكبيرة وأشجار النخيل وتاريخ المنطقة منذ الجاهلية فالإسلام إلى زمن التشظي والخرافات، لكنه بعد وفاة حاكم الدرعية محمد بن مقرن قبل أربع سنوات وخروج الحكم من أسرته غادرها عائدًا إلى المخا حيث الوطن والأهل وأصدقاء العمر.

ولأن الحديث يدور في مدينة البن كان لزاماً أن يتطرق الحديث عن البن، حيث أخبره مطلق عن بداية دخول القهوة إلى نجد. لكن تحريمها في مكة بالبداية أخر هذا الدخول، لكنها بدأت بالانتشار على استحياء وإن كان من يشربها من أهل نجد يفضلونها خفيفة لكنها لا تزال مشروباً خاصًا يقتصر على البعض القليل.

وبينما كانا يتجاذبان أطراف الحديث جاء الشيخ طه، وبعد السلام جلس معهما وكان سعيدًا لرؤية صابر ويستفسر منه عن غيابه وأحواله وهو ما بدد الشكوك في قلب صابر إلى الأبد. لكن كان ينبغي عليه معرفة سبب زيارته لمنزل جارهم بطريقة ما دون أن يسأله أو يتطرق للحديث عن الأمر.

يبدو واضحاً حجم الألفة والعشرة بين الشيخ طه ومطلق النجدي من خلال تذكرهما لقصص الطفولة في شوارع المخا ورمال ساحلها وسور مدينتها، وهما يتطرقان إلى تاريخ المدينة التي ولدا بها في عهد الإمام المتوكل

بعد مغادرة الأتراك بسنوات معدودة، لكنهما عاشا سنوات توسع المدينة وازدياد الأجانب والتجار من العرب واليمنيين، ثم أخذ مطلق النجدي يحدثهما عن نجد وكيف أنها مجزأة بين عشرات الحكام حتى أصبح لكل مدينة حاكماً، وانتشرت البدع والخرافات وعبادة القبور حتى أن الناس أصبحت تتبرك بصنم ذو الخلصة في تبالة رغم هدمه في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام.

وكما يظهر فقد أثار تطرق مطلق النجدي إلى عبادة القبور حفيظة الشيخ طه الذي أخذ يجادله بهدوء الصداقة والعشرة عن الفرق بين العبادة والتوسل وبين الطلب والدعاء، وأخذ يعدد الأدلة ويسردها منها قوله تعالى:(يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة)، وأن التوسل السليم بالأولياء لا شيء فيه أو عليه، وإنما الممنوع هو الطلب المباشر من الألياء، فمن أين جاء الحكم بأن التوسل بالأولياء مكروه على الإطلاق، أما ما دخل على أسلوب التوسل من انحراف أو جهالة وهو أمر لا ينكره الشيخ طه فهذا شيء آخر له حكمه الخاص به، والدخيل لا يغير حكم الأصل.

وكيف يكون التوسل بالأولياء ممنوعًا، وقد صح علميًا حديث النبي عليه الصلاة والسلام: (اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك) وحديثه عليه الصلاة والسلام: (اغفر لفاطمة بنت أسد بحق نبيك والأنبياء من قبلي)؟؟ ثم استشهد بالحديثين الشيخ ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، وفيهما توسل صريح بالصالحين. بعدها تناول مطلق النجدي في ردوده شرح الآية حيث استدل بتفسير الطبري في تفسيره لمعنى الوسيلة في قوله

تعالى: ﴿وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ بأنها تعني اطلبوا القربة إليه بالعمل بما يرضيه، والوسيلة هي الفعلية من قول القائل: توسلت إلى فلان بكذا، بمعنى: تقرَّبت إليه، ومنه قول عنترة:

«إن الرجال لهم إليك وسيلة إن يأخذوك تكحلي وتصبري»

يعني بالوسيلة القُرْبة. وأما شيخ الإسلام ابن تيمية فيرى الوسيلة في النبي ﷺ هي شفاعته ودعاؤه إنما ينتفع به من شفع له الرسول ودعا له. فمن دعا له الرسول وشفع له توسل إلى الله بشفاعته ودعائه كما كان أصحابه يتوسلون إلى الله بدعائه وشفاعته وكما يتوسل الناس يوم القيامة إلى الله تبارك وتعالى بدعائه وشفاعته صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليماً، ولو كان الله عز وجل يقصد بها التقرب إلى الأولياء وأضرحتهم لذكرت واضحة بالنص الصريح.

وفي وسط النقاش تذكر صابر نقاشات الهولندي البروتستانتي مارك مع صديقه روبير الفرنسي الكاثوليكي حول الفوارق بين المذهبين. ففي الوقت الذي تنكر فيه البروتستانتية مظاهر البابوية والوساطة والمطهر يرى الكاثوليك أن البابوية جزء مهم من الدين حيث أن أول بابا هو بطرس أحد حواري المسيح عيسى عليه السلام، كما أن الكنيسة مهمة في مرحلة وسطى بين المسيحيين والرب. وكان قد عرف أن هناك فوارقَ أوسع وأشملَ مع مسيحي الشرق الأرثوذكس، كما أدرك الفوارق من خلال نقاشات الشيخ طه مع مطلق النجدي مع مذاهب أخرى كالشيعة والزيدية. لم يكن صابر متبحراً بالعلوم الشرعية؛ ليفهم الفوارق التي يراها الشيخ

طه ومطلق النجدي تمس صميم العقيدة، لكنه كان يقف مقتنعاً في منطقة وسط بينهما: فيرى بين العبادات ما تحتاج إلى روحانية، ويرى بأن الإمعان في التوسل بالقبور يحتاج إلى تهذيب وأن الله موجود، فما الحاجة لوساطة ميت هو في علم الله، حتى وإن شهدت له الأرض بالصلاح. وفي المساء- بعد صلاة العشاء- أخذ صابر يتحدث مع الشيخ طه عن العمل والمنزل؛ أملاً في دفع الشيخ للتحدث عن سبب زيارته؛ حيث أخبر صابراً أنه كان في زيارة لمنزل يقع بالقرب من منزله وأن سبب الزيارة هو طلب صاحب المنزل مساعدة الشيخ، لأن زوجته مصابة بالمس، لكنه زارها لثلاثة أيام ولم يجد بها أي بأس. ويعتقد بأن الرجل كبير في السن وهي شابة صغيرة تحب الدلال والملابس الجديدة والرقص والحرية كما تعودت في قريتها وهي طفلة، وليس هناك أسوأ من حبس بعد انطلاق وكبت بعد جموح وشباب يضيع في كنف كهل، لكنه نصح الزوجة بالصبر والالتزام واحترام زوجها والمجتمع الذي تعيش فيه، ونصح الزوج بإخراج زوجته بين كل فترة وأخرى إلى ساحل البحر البعيد أو أطراف المدينة النائية، لكن من الصعب إقناع كهل بأفعال الشباب حيث أن كل همه هو التجارة والأموال. وبغض النظر عما حدث إلا أن صابراً كان سعيداً بما سمعه وألا علاقة له بالأمر، فزال عنه خوف سيطر عليه لأسبوع كامل حتى أنه كان يرى وجه الشيخ طه في وجوه الجميع، لكنه قرر عدم التجاوب مع مساعي جارته: فلا دينه يأمره بهذا ولا أخلاقه تسمح له بأن يستغل ظروف امرأة ومعاناتها مع زوجها؛ لذا فوصول الأمور إلى هذا حد هو بمثابة رسالة إلهية له حتى لا يكشف عنه الستر ويفضحه بين الناس.

طوال شهر رمضان كانت المهمة هي تجهيز البن ووزنه بالرطل الهولندي وتجهيزه في مصنع الشركة الهولندية والتأكد من سلامة البن وخلوه من البلل والسوس، وماتبقى من أيام رمضان كان يقضيه بالعبادة ليلاً في الجامع والجلوس مع صديقه عبدالله الذي كان يسليه بقصصه وحكايات أهل البلاد وكذلك طرائفه التي لاتنتهي، حتى جاء في أحد الأيام وهو في حالة يرثى لها وثيابه ممزقة بعد أن طرده عمه وجسمه مليء بالرضوض. وعندما استفسر منه عن السبب أخبره بأن حاكم المخا أصدر أمراً إلى التجار بعدم تخزين البن وأن يقوموا ببيعه كاملاً بسبب قلة المحصول في ذلك العام وضعف إيرادات الدولة من الضرائب والعمولات. وبسبب جشع عمه فقد قام بتخزين عشرين زكيبة مملوءة بالبن على أن ينتظر ارتفاع سعر البن لبيعها. وعندما قام عمال الحاكم بالنزول للتفتيش ومراقبة السوق، قام عمه والكثير من التجار المخالفين لقرار الحاكم بإغلاق حوانيتهم. ولأن الأمر كان مفاجئًا فقد قام عمه بإغلاق الحانوت بسرعة وعبدالله بداخله يقوم بترتيب الزكائب. ولم ينتبه إلى إغلاق المحل وبينما هو يقوم بالترتيب شاهد حنشاً ضخما بين الأكياس، فانطلق يجري مذعوراً باتجاه الباب المغلق الذي قام بطرقه بقوة وهو يصرخ طالباً للنجدة مع مرور عمال الحاكم الذين قاموا بكسر الأقفال وإخراجه من الحانوت حيث شاهدوا مخزون البن بداخل الحانوت، فقاموا بحبس عمه لمدة يومين وتغريمه مبلغًا كبيراً من المال. وبعد الإفراج عنه قام بضربه في الشارع أمام الحانوت وطرده دون أن يمنحه أجرته.

أما صابر فلم يتمالك نفسه من الضحك على حظ صديقه عبدالله وعلى حال عمه الذي خسر المكسب وتعرض للحبس والغرامة. وتذكر حينها عشرات المواقف التي حدثت لعبدالله منذ طفولتها ومنها بيعهم محصول البن لشيخ المنطقة الذي اتفق مع والد عبدالله على كل شيء وأعطاه مبلغاً مجزيًا من المال كمقدم ضمان لعدم بيع المحصول لشخص آخر على أن يذهب بالمحصول بعد أسبوع لقرية الشيخ ويستلم باقي الأموال. وفي الموعد المحدد انطلق والد عبدالله الذي اصطحب ولده معه حاملاً المحصول على ظهور الحمير، وبعد ساعات من السير وسط الجبال والوديان وصلوا إلى قرية الشيخ، وقبل أن يدخلوها سمعوا أصوات جلبة وصراخ ولم ينتبهوا إلا والناس تحاصرهم ويقبضون عليهما بتهمة قتل الشيخ. وأثناء القبض عليهما وتفتيشهما عبثوا بالمحصول وبعد أسبوع اكتشف الجميع أن الجناة أشخاص آخرون من قرية مجاورة كان بين أهلها وبين الشيخ ثأر سابق، فتسللوا إلى داخل القرية وقتلوا الشيخ ثم فروا هاربين وقت دخول عبدالله ووالده إلى القرية. وعند انتشار أهل القرية للبحث عن الجناة لم يكن هناك من غرباء في القرية سواهما. وهكذا عاد عبدالله ووالده يجران أذيال الخيبة والخسارة فأصبحت حكايتهما طرفة يتداولها أهل القرية لوقت طويل. وأصبح عبدالله مشهوراً بالحظ السيئ والمواقف المضحكة. ولأنه لم يعد لدى عبدالله مكاناً يقيم فيه، ومن غير الممكن أن يستضيفه في منزل مارك، فقد استأذن من مارك أن ينام معه في المصنع فأذن له.

كانت أخبار المحطوري تتوالى بلا انقطاع بعد مرور الشهر الثالث على قيام فتنته وتداول أخبار معجزاته هو ومجاذيبه الذين لا يؤثر فيهم

الطعن ولا الرصاص حتى سيطروا على كل المناطق من صنعاء إلى حجة، وسيطرَ على ميناء اللحية وقتلَ الهنود البانيان وبدأ يتجه صوب حرض وصبيا وأبي عريش وشرد الناس وكان قتلاه بالآلاف وأصبح يستعد للمسير إلى المواهب (مقر الإمام المهدي الجديد) لهذا فقد كان الوضع متوتراً في المخا والجميع يترقب ويدعو الله بانفراج الأمر: من مسلم ويهودي ومسيحي ومجوسي، مما جعل الوضع العام متوتراً والقلق يسيطر على الجميع.

وفي العشر الأواخر من رمضان كان صابر متفرغاً للعبادة والصلاة في الليل من تراويح وتهجد وفي النهار يؤدي عمله مع مارك الذي كان يمنحه بعض الراحة. أما عبدالله فكانت تمر عليه أوقات لا يراه بها، ولم يأخذ الأمر على محمل الجد سوى تفسيره للأمر بأنه تكاسل من عبدالله عن العبادة وقيام الليل في رمضان. فاستغل الفرصة في أحد الأيام التي بقي فيها عبدالله موجودًا فاصطحبه معه إلى الجامع حيث صليا العشاء والتراويح وبقيا هناك بحضرة الشيخ طه يخطب بهم حيناً ويقرآن القرآن حيناً ويتجاذبان أطراف الحياة. وكأن الشيخ طه يؤمن بأن السلوك هو مفتاح الهداية، فلايمكن لأحد أن ينصح غيره بمعزل عما يشاهده في سلوك الناصح: (دع سلوكك يتحدث عنك) كما يكرر دائماً، فلم يكن الشيخ من النوع الذي يكثر من النصائح إلا إن استنصحه أحدهم. ولأنه يعلم بالعلاقة بين صابر وعبدالله- بما سبق من حديث بين الشيخ وصابر- فقد تحدث الشيخ عن السلوك والنفس الأمارة بالسوء التي مفتاحها هو (منك إليك بك) وهو مفتاح لا يسري به أية نورانية لغياب الله منها غيابًا شاملاً. فالنفس تعمل على إشباع رغباتها واستقصاء لذتها الحسية

والمعنوية.. وذكر الشيخ كلاماً لابن عطاء الله قال فيه:

«متى وردت الواردات الإلهية عليك هدمت العوائد منك وقال عز وجل (إن الملوك إ ذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة) فالوارد يأتي من حضرة قهار؛ لأجل ذلك لا يصدمه شيء إلا دمغه. قال تعالى: (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق.. »

وتحدث الشيخ عن خصائص ذكر الله وهي تتلخص بتحقيق التجرد الشعوري من الأشياء مع امتلاكها « ذلك أننا قد لا نملك شيئاً ونتشوق إلى تحصيله فنكون مرتبطين به شعوريا، وإن كنا لا نملكه ماديا. فمن يملك الشيء وهو زاهد فيه خير ممن لا يملكه وهو طامع فيه. وأن للقلب أمراضاً، وذكر الله هو علاجها الملائم، وهو المحصن الروحي الذي يهاجم نواتها القوية لإرادة الشر التي هي داء الخاطر السيء الذي إذا وجد التربة الخصبة للانتشار- التي هي القلب الغافل عن ذكر الله- فإنه ينغرس بها ويتجذر ليصبح هموماً، ثم نية، ثم إرادة، ثم فعل. والفعل الآثم يقطع على كل خير ويمحو كل نور. وقد قال قطب الأقطاب الإمام أحمد بن علوان (إن من سلك طريقاً فغويها، أو من حفظ آية فنسيها، فلم يطلب دليلاً يوصله، أو عالماً يرد عليه ما نسي ويحمله، عاش حائراً، ومات عن السبيل جائراً، ويحشر أعمى: (قال رب لِمَ حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا. قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى.. ».

أراد صابر التأكد من أمر، فسأل الشيخ مستفسرًا:

- من هو ابن علوان..؟ فمنذ طفولتي وأنا أسمع به مولاي الشيخ؟!

- هو القطب صفي الدين أبو العباس أحمد بن علوان بن عطاف الحسني العلوي. لم يبلغ أحد شهرته ولا بلغ مكانته في عموم اليمن وقد عاش وولد في عهد الدولة الرسولية قبل خمسة قرون ودفن في يفرس في جبل «الذخر» أو كما صار يطلق عليه بجبل حبشي، وهناك جامع ابن علوان وضريحه.

حينها تذكر صابر وجود ضريح يدعى ضريح ابن علوان في يافع في قرية اسمها الفقراء في عثارة في مكتب المفلحي(*) فأخبر الشيخ عنه من باب الاستفسار فقال له الشيخ طه:

- نعم.. نعلم هذا وأنا على تواصل دائم معهم.. فقبل أكثر من قرنين ونصف ذهب شيخ من شيوخ ابن علوان يدعى محمد بن عبد النبي الرفاعي من يفرس في تعز حيث ضريح الشيخ أحمد بن علوان لجمع الزكاة والمساعدات. وصل إلى منطقة المفلحي في يافع، وهناك يقال «إن فرسه تعثرت» فاعتبرها ربما رسالة إلهية فقرر الإقامة في تلك المنطقة وأسماها عثارة - كما تفضلت أنت لي يا صابر- وأنجب أربعة أبناء واستوطنت إلى جوارهم بيوت أخرى حتى كانت عثارة من أكبر قرى يافع. وقام أحفاد الشيخ الرفاعي الذي يقال بأنه من أصول عراقية بإنشاء ضريح كبير بقبة عالية للشيخ على مقربة من القرية في تل صار يسمى رباط بن علوان، وصارت بيوت أبناء الشيخ وأحفاده تعرف بـ(الفقراء) أو فقراء ابن علوان

(*) تم تدمير قبة ابن علوان في يافع عبر أنابيب الغاز بعد الوحدة بين عامي 1991-1992، بعد خمسة قرون من بنائها.

وهو مصطلح صوفي لا علاقة له بحالتهم الاجتماعية. واستمرت الوفود من يفرس ومن مناطق أخرى في يافع بالتواجد والزيارة وغيرها في بعض المواسم لتقام هناك ليالي الذكر وإحيائها بالقرآن والأناشيد. ثم التفت الشيخ طه إلى عبدالله وطلب منه أن يحكي لهم بعض طرائفه وقصصه فليست مجالس الذكر إلا بأنس أصحابها ومجاورتهم لبعضهم. ولم يكن عبدالله يتوقع أن يحادثه الشيخ بهذه الأريحية والملاطفة مما انعكس على محياه وهو يحكي عن المواقف التي حدثت له وأضحكت الجميع في الجامع وكلها تحمل الكثير له من الحظ السيء (له ولمن معه) حتى أصبح معروفاً بهذا في كامل القرية رغم صغر سنه، وهذا مادفعه للسفر لعل الحظ يتغير، إلا أن ماحدث له مع عم صابر يوم قبض عليه جنود الحاكم يثبت أن المنحوس سيظل كذلك طوال عمره ولو في المخا.

استمر صابر بقية شهر رمضان في العمل نهارًا مع مارك وفي العبادة ليلاً، وكان عبدالله قد عاد إلى سيرته القديمة حيث كان يذهب مع صابر حيناً ويختفي أحياناً، ولولا كلمات الشيخ طه له بالصبرعليه وملاطفته لكان قد طرده؛ خصوصاً أنه ضحى بالنوم في منزل مريح من أجل يبقى معه في المصنع، ولم يستطع معرفة الأماكن التي يذهب إليه، لكن رؤية الحال يغني عما وراءه، والمخطئ يسرف في إظهار عيوبه للناس، وهذا هو حال عبدالله.

* * *

على متن السفينة «بيرين»..

حدث في ظهيرة أحد أيام عيد الفطر أن بلغهم وجود إشارة عن وصول سفينة الشركة المنتظرة، وهي بالطبع لم تكن السفينة الوحيدة على سواحل المخا، فإلى جانب السفن الإنجليزية وغيرها من مناطق أوروبية فهناك سفن أصغر من جدة وصبيا ومصر تأتي وتذهب وكذلك السفن الهولندية التي تأتي من «سورات» و«باتافيا» مرتين في العام وتعود أدراجها بعد تموين سريع وغيرها؛ فإن السفن العملاقة التي تأتي من مناطق الشرق خصوصاً من المكتب الرئيسي في سورات تبقى هي الأهم والأكثر قدرة على الشراء وضخ الأموال، فكانت السفن تأتي من سورات إلى المخا ثم تعود إلى هناك أو إلى باتافيا أحياناً لإكمال البضائع قبل السفر إلى هولندا.

هرع الجميع إلى الساحل بانتظار رسو السفينة وافترشوا الرمال طوال ثلاث ساعات، كانوا يرون السفينة وهي تتقدم بأشرعتها الضخمة كعروسة فوق هودجها الجملي الذي يتهادى فوق الصخور، وما إن وقفت السفينة تماماً قامت المدافع المنتصبة فوق القلعتين على البحر بإطلاق بعض الطلقات الترحيبية ورفع أعلام الدولة اليمنية وهو ماجعل

السفينة تبادل الترحيب بمثله، حيث قامت بإطلاق بعض القذائف- قد تكون ثمانية أو تسعة.

شاهد صابر نزول البحارة.. كان عددهم يقارب المائتي شخص وقد عرف من مارك أن هناك مايفوق الخمسين بحارًا لا يزالون على ظهر السفينة من أجل الحراسة والاستعداد.

انتشر البحارة جميعهم في شوارع المدينة لتناول الطعام في حانات المدينة بعد فترات طويلة من الإبحار وتناول وجبات مكررة وكذلك لشرب الماء والقهوة وارتياد بعض الحانات الموجودة لتناول بعض الخمور المحلية، وكذلك لشراء بعض ما يحتاجون إليه من ملابس وفضيات محلية، وكان عددهم يشكل تدفقًا هائلاً على مدينة صغيرة كل قوامها هو الساحل لكنها بدون زخم سكاني أو مناطق مأهولة قريبة تدعمها بالتوطين، وكان مارك وصابر والسيد «فليتزر» وباقي الهولنديين والموظفين والعمال يشرفون على إنزال الحمولة الخاصة ببضائع الشرق من البهارات والشاي والتبغ والحرير والقرنفل والعود والمنسوجات وكذلك الخزف الصيني قبل أن يتم تحميل بضائع اليمن من البن والفضة والذرة والشعير. وكان حاكم المدينة مع مساعديه وعماله يقومون بتسجيل كل مايُنزل بعد وزنه بدقة من أجل احتساب الضريبة، وكانت الموازين عبارة عن أحجار ملفوفة بالقماش، وكان حاكم المدينة رجلاً بديناً يفترش مصطبة خشبية مرتفعة نصبت له وسط الرمال وهو يشرف بنظره ويوجه مساعديه وعماله.

بالمقابل كانت عمليتا التفريغ والتحميل تسيران بصورة دقيقة مع

تسجيل كل شيء في دفاتر الشركة وكان البن هو الكمية الأكبر حيث تم تحميل حمولات البن كاملة، وكل ماتم إنزاله أو تحميله تم تسجيله بشكل دقيق. كان صابر يتلقى التعليمات مباشرة من مارك وقد أبدى نشاطًا وسرعة في تنفيذ ما يملى عليه لدرجة أن السيد «فليتزر» لاحظ هذا وأبدى إعجابه لمارك لحسن اختيار الفتى الذي كان يتصرف وكأنه مالك الشركة في الاهتمام والحرص وحث الحمالين وتشجيعهم حتى أنه طلب من مارك منح صابر وعماله بعض المال وهي فكرة أثبتت فعاليتها بالمردود الإيجابي لهم من حيث سرعة العمل وجودتها بعد أن شعر الجميع بالراحة والطمأنينة.

إثر إكمال العمل خلال يومين كان أمام بحارة الشركة الهولندية الخلود للراحة والتخلص من تعب السفر عبر البحر قبل إكمال مهمتهم إلا أن مارك أراد الصعود إلى متن السفينة لمتابعة عمليات تخزين البضائع لمدة يومين، كما أن الاشتياق للسفينة والبحر دفعه لهذا بعد قضاء عامين كاملين في المخا. وقد خطرت له فكرة اصطحاب صابر معه الذي أظهر سعادة عارمة في ذلك فتوجها إلى الساحل حيث استقلا قارباً صغيراً للذهاب إلى السفينة التي ترتاح كعروسة جميلة في مكان غير بعيد عن الساحل بسبب عدم وجود ميناء مهيأ لذلك، ولايمكن لها أن تقترب أكثر من ذلك وإلا تحطمت وغرقت إذا ارتطمت بقاع الساحل بسبب ضحالة مياه البحر وقرب الأعماق من الساحل الذي لا يستوعب السفن الشراعية العملاقة. ووسط حماسة صابر فوق القارب الصغير وهما يستعدان للانطلاق دوت طلقات المدافع من برجي القلعتين المطلتين على

الساحل وعلت أصوات عالية شقت الأجواء وهي تطالبهما بالتوقف، وشاهدا جنود الحاكم وهم يركضون باتجاههما حتى وصلوا إليهما. وبعد فترات من الصراخ والتجاذب ومحاولة الاعتداء عليهما فهموا أن مارك قام بمخالفة الأوامر والاتفاقيات التي وقعوها مع شركة الهند الشرقية الهولندية وقاموا باصطحاب أحد رعايا الإمام من أبناء اليمن للسفر معهما دون إذن مسبق. وعبثًا حاولا إقناعهم بأنهما لن يسافرا وكل ماسيفعلانه هو الذهاب إلى السفينة لإنجاز بعض الأعمال والعودة فوراً ولن يناما إلا في منزلاهما. وإمام إصرار الجنود وحراس الساحل وتعنتهم لم يكن بوسعهما سوى الرضوخ والسير معهم إلى منزل الحاكم الذي أمر بوضعهما في الحبس حتى صباح اليوم التالي للنظر في أمرهما. حاول مارك رفض الأمر وإبداء غضبه، لكن كما يقال الكثرة تغلب الشجاعة وإن كل مايفعله لاقناع جندي واحد سيذهب هباءً. فالجندي مجلوب على الطاعة والتنفيذ ولو كان يستطيع التفكير لما ارتضى لنفسه تنفيذ الأوامر دون تفكير باختياره أو مجبورًا على هذا. وفي غرفة الحبس تعامل صابر مع الأمر ببساطة على الرغم من كونها المرة الأولى التي يسجن بها بينما مارك كان ثائرًا وغاضباً ويركل الجدار المجاور له. فاقترب منه صابر حاثا إياه على الهدوء:

- غضبك لن يخرجنا من هنا
- أستغرب هدوئك هذا رغم أنها المرة الأولى التي تحبس بها!!

ابتسم صابر وهو يقول:

- أما أنا فأستغرب غضبك رغم أنها ليست الأولى كما أخبرتني..

أمال صابر رأسه للخلف على الجدار ثم واصل حديثه قائلاً:

- سمعت الشيخ طه يتحدث في إحدى المرات بأن التجربة الأولى دائمًا ممتعة بغض النظرعن صوابها أو خطأها، لكن الاستمرار في الخطأ يجعل التجربة سيئة بقدر الانغماس في الخطأ، وبقدر الخطأ ينمو الذنب. وكلما كان الاحساس بالذنب كبيرًا زادت التجربة سوءً والواقع مراً.

نفخ مارك صدره وهو يقول له:

- لقد سجنت بكل أنواع السجون وأصعب القلاع وأكبر السفن وحتى في أكواخ من الخص أو في سجن حقير كهذا، لكنها المرة الأولى التي أسجن بها دون سبب..

- يبدو أنك متمرس على السجون.. متى كانت المرة الأولى التي حبست بها..؟

قام مارك بتحسس أرضية السجن بقدميه وسط الظلام الحالك وهو يقترب من صابر عن طريق صوته ثم جلس إلى جانبه متكئًا على الحائط قائلاً:

- كنت شابًا صغيرا في مراهقتي قبل أقل من ثلاثين من عاماً عندما شاركت تحت إمرة «الأميرال ميشيل دي رويتر» في معركة سولباي..

اعتدل مارك في جلسته وهو يتحدث بشغف:

- كان أمير بحر عبقري وكنا نسميه «بيستا فار» أي الأب الأعلى. خضت تحت رايته ثلاث معارك في العام التالي أمام سواحلنا، انتصرنا بها

جميعها.. رايته قبل أن يقتل في أحد المعارك اللاحقة ويتم أسري بعد أن حاولنا اقتحام إحدى السفن المهاجمة..

- من كان عدوكم؟!

- طوال عقود طويلة خضنا حروباً عديدة مع بريطانيا وفرنسا اللتين كانتا تتحالفان ضدنا في ثلاث مرات، عرفت باسم الحروب الإنجليزية حيث تندلع في كل عشر سنوات تقريباً مرة وتستمر لعامين أو ثلاثة، وكنا في بداية التأسيس والتكون كدولة أوروبية، ثم نتيجة التصالح بين بريطانيا وبلادنا تم تبادل الأسرى وعدت للخدمة منذ ذلك الوقت.

التفت مارك صوب صابر الذي يجلس إلى جانبه متابعاً إياه باهتمام قبل أن يسأله:

- لم تخبرني.. ماهو سبب هدوئك؟

- لاشيء.. المسألة بسيطة لا تستدعي هذا القلق.. كنت قد سمعت الشيخ طه الشاذلي وهو يتحدث عن قصة النبي يوسف وكيف أنه فضل السجن على أن يستمر في العيش مع من لا يلائمونه في السلوك وهو يعلم أن الله غالب على أمره وهو لطيف لما يشاء. وطالما أنه لم يخطئ بل كان من عباد الله المخلصين ونبياً، فسوف يحيطه الله بلطفه.. أبدى مارك إعجابه بيقين صابر بالفرج وقدرته على فهم الأمر على حقيقته رغم الكرب؛ لذا فقد اعتدل في جلسته مسندًا رأسه إلى الجدار وهو يتنغم بلحن أغنية هولندية عتيقة(*):

(*) القصيدة لأول مرة تكتب بالعربية: كتبها الشاعر الهولندي «جوست فان دين

«لقد حمل هولندا طوال حياته
في قلبه
حتى أصبح مثقلاً مع تقدمه بالسن
بكثيرمن الحزن
لماذا هذا الجحود وهذا السيف
ملطخ بالدماء؟
وهذه الغربان السوداء
تتغذى على جثته
لماذا قطعوا عنقه على المشنقة
حتى أن دمه
قد جف في عروقه
وفي جثته
لم يجد أحد أية عملات ذهبية إسبانية
بدعوى الخيانة
ولم يستخدم إغراء الناس بالأموال
لكي يثير كراهية الناس

فاندل» عام 1631 على خلفية اتهام «يوهان فان اولدينبارنيفيلت» بالخيانة للقوات الإسبانية عام 1619 وقتله شنقًا بتهمة الخيانة قبل أن يتبين أن التهم باطلة.تحولت القصيدة بعد ذلك لأغنية يتم ترديدها لقرون طويلة

كل هذه القسوة الجشعة
التي سحبت
ذلك السيف الشرير القاتم من غمده
قد هدأت
الآن يتنهدون: كيف يمكننا أن نرتاح
آه، ذلك الندم سوف يأكل نفوسنا
إلى الأبد

هاهم يمنون أنفسهم لعل القساوسة
يخلصونهم من الندم
أو أن قضاة دورت المنافقين يعطونهم
الخلاص
من المستحيل. هاهو الرب يأتي بكلمته
لا أحد بإمكانه إيقاف تأثير القتل

اهتم بنفسك وراقب تفكيرك
من أنت؟
واخشَ من الدودة التي تقضم قلب القاضي
لا تلوث نفسك تجاه شخص جيد
ولا تتهم الأبرياء بخيانة الدولة.. »
أخذ مارك يغني بحماسة كبيرة حيث يبدو بأنه يختار أغانيه حسب

الحالة التي يكون فيها. فلحن الأغنية يشبه لحناً قداسياً حزيناً؛ خاصة وأن كلمات الأغنية تتحدث عن الظلم المرير الذي تعرض له بريء. اكتفى صابر بسماعه وهو يردد كلمات أغنيته مع لحنها حتى غلبه النعاس. في اليوم التالي جاء الحراس لاصطحابهم إلى الحاكم بعد صلاة الفجر مباشرة، وفور دخولهم إلى قاعة الحاكم - في منزله المطل على البحر مباشرة - نهض لتحيتهم وأمر بتقديم الطعام ليتناولاه معاً، وبعد الإفطار كان هناك نقاش مستفيض حول ماحدث رغم أن الحاكم قد أبدى سلفاً اعتذاره على سجنهما فلم يكن الأمر من وجهة نظره يستدعي ذلك والاكتفاء بإرجاعهما. بما أن مارك تسري عليه اتفاقيات بين الدولة وشركة الهند الشرقية يلتزم بموجبها الطرفان بتنفيذ بنودها، ومن ضمن البنود فيما يتعلق بالحادثة عدم ممارسة أعمال التبشير المسيحية أو اصطحاب أيٍّ من أهل البلاد للسفر على متن سفن الشركة إلا بإذن مسبق، ولأن الشركة الهولندية وموظفيها معروفون في المدينة، فلم يكن هنالك من داعٍ للحبس. كان مارك يدرك أن الحاكم خائف من البحارة الهولنديين المنتشرين في أرجاء المدينة والذين يتجاوزون عدد جنود الحاكم، كما أنه كان يخشى مدافع السفينة القوية؛ خصوصا وأن الروايات تتحدث عن قصف الإنجليز للمدينة في أول بعثة تجارية بقيادة «هنري ميدلتون» حينما اعتقل هو وجنوده من قبل الحاكم التركي «رجب آغا» بأوامر الوالي جعفر باشا عام 1610م فاستطاع الهرب إلى سفينته وقصف المدينة بمدافع إحدى سفنه الثلاث. وبسبب هذا القصة كان حكام المخا حذرين بالتعامل مع الأوروبيين. ولأن الحاكم كان مصمماً على موقفه وظنونه أراد مارك إقناعه بطريقة

أخرى: فالحاكم كما يعرفه مارك من تعاملات سابقة يبدو ذكياً إلى درجة المكر، ويتحدث بطريقة هادئة وطالما أن طريقة الاقناع السابقة لم تجدِ نفعاً فقد أراد مارك جر الحاكم إلى الحديث بالسياسة بشكل كبير، يخشى الحاكم معه أن يصل إلى الإمام فيعتبره تحريضًا ومشاركة من الحاكم في هذا التحريض فقال مارك:

- صابر يعمل لدينا سيدي الحاكم وهناك اتفاقية بيننا بعدم اعتراض موظفينا مقابل الضريبة التي ندفعها، وأضف إلى ذلك مشترياتنا من البن، وهو موظف لدينا بصفة رسمية.

ابتسم الحاكم وهو يقول:

- لقد حصلتم على تخفيض كبير في الضريبة منذ أيام الأتراك، فبينما نأخذ على الجميع خمسة بالمائة وعلى الانجليز ثلاثة بالمائة، أنتم الوحيدون الذين تدفعون اثنين ونصف بالمائة. أما صابر فهو أحد مواطنينا والاتفاقية لاتشمل رعيتنا.

كان مارك هادئاً حيث أنه كان يتوقع هذا الحوار كما يبدو فقال:

- في الحقيقة يا سيدي الحاكم هو ينتمي إلى دولة أخرى: سلطنة مستقلة لا تخضع لسلطانكم وهي سلطنة يافع(*)

بدا الارتباك مخلوطاً ببعض الغضب على محيا الحاكم الذي أدرك

(*) تأسست سلطنة يافع السفلي عام 1655م، وتأسست سلطنة يافع العليا عام 1680م نتيجة الصراع من دولة الأئمة بعد خروج الأتراك من اليمن للمرة الأولى.

بأنه وقع في الفخ قبل أن ينهض من مكانه بحدة ويسير باتجاه مارك ثم يتجاوزه حتى أصبح خلفه وبدأ بالتحدث بحدة دون أن يستدير:

- أنا ممثل الإمام المهدي حاكم هذه الأرض بأمر الله من البحر ومن الصحراء إلى الجبل، وهو الحاكم اليمني الأول منذ عصور طويلة الذي يملك جانبي مضيق باب المندب في ديار اليمن وزيلع وتاجورة من أرض الحبشة والصومال(*).

استغل مارك تحرك الحاكم فأشار بخفة إلى صابر بعدم التحدث مطلقًا، وقال موجهاً كلامه للحاكم:

- هذه المناطق يسكنها اليمنيون منذ قرون طويلة ولا أحد ينافسهم بها، حتى أننا نشتري العاج والعبيد من اليمنيين من مناطق مختلفة، وليس من سكان تلك المناطق التي لم ندخل إليها بشكل كامل..

كان مارك يقول هذه الكلمات بينما كان الإمام يستدير ليقف خلف صابر تماماً الذي كان صامتاً تماماً. فقال الإمام:

- ما يأمر به الله لن يستطيع البشر اعتراضه والله جل وعلا منحني أنا وآبائي وأسرتي العلوية الهاشمية هذه الأرض ببشرها وحجرها ومائها وهوائها..

استغل مارك تحرك الحاكم فأشار بخفة متناهية بيده إلى صابر إشارة إلى ضرورة التزامه للصمت وتركه هو يتحدث فقط، فقال:

- لا اعتراض على هذا سيدي الإمام ولكنني أتحدث عن الواقع، هو جاء

(*) عام 1695 أرسل حملة واستولى على زيلع.

من سلطنة مستقلة عن سلطانكم.

وقتها كانت ملامح الغضب والحدة قد اختفت من وجه الإمام الذي عبر بين صابر ومارك متجهاً لكرسيه المرتفع حتى وصل إليه ثم استدار وهو يشير إليهما بسبابته:

- من يخرج عن سلطان الإمام يكون متمردًا، تمردوا على أمر الله ورسوله وأبو أن نعلي كلمة الله.

- لكن صابر ليس متمرداً ودخل إلى أرض الإمام وعمل بها بعلم حكامه وولاته فهو لم يهبط أرض المخا من السماء، بل جاء قادمًا إليها من معظم أراضيكم، والبن الذي تنتجه بلاده يدخل أراضي الإمام في عدن التي تسيطر عليها أو في المخا أو في غيرها وتستفيد منها دولتكم في تحصيل الضرائب. كما أن الجميع في المخا يشهد له بالصلاح وحسن السيرة بمن فيهم الشيخ طه الشاذلي إمام وخطيب الجامع الكبير هناك. إذن هو في أرضنا وخاضع لسلطان الإمام.

- اسمح لي يا سيدي أن أستفسر منك بخصوص نقطة محددة.

أشار إليه الحاكم بكف مبسوطة بمعنى الاستمرار فواصل حديثه:

- هل تعتبر كل سكان المناطق التي لا تخضع لسلطانكم متمردين أم الذين يحاربونكم فقط..؟

- أنتم أيها الأوربيون بارعون في الجدال وتفريغ المسائل لدرجة فظيعة. أنتم أرباب الـ...

التفت إلى مساعده الذي يقف إلى يمينه وهو يسأله:

- ماهو علم الكلام الفارغ والجدل والهراء..؟

مال عليه مساعده قائلا بصوت منخفض استطاع مارك أن يسمعه:

- علم الفلسفة والمنطق.

هز رأسه وهو ينظر إلى مارك ثم قال مستكملا حديثه بنفس نبرة الصوت السابقة وكأنه لم يقطعه:

- ماهو الفرق بين الحالتين إن كانت الأرض هي من تقاومنا وبالتالي جميع من يسكن عليها من يحاربنا أو أهلهم، وللإمام المتوكل إسماعيل بن القاسم- وهو عم والد الإمام المهدي أحمد بن الحسن- فتوى شهيرة باعتبار أراضي اليمن الأسفل أرض كفار بسبب سيطرة الأتراك عليها وهم كفار بالتأويل وبما أننا انتزعناها منهم بالقوة فحكمها حكم خيبر وبالتالي تحويل عائدتها من عشرية توجب كزكاة على المسلمين إلى خراجية تحق على الكفار لنا.

لم يشأ مارك أن يسير الجدل إلى نقطة بعيدة عن الموضوع وهو لن يتدخل في شؤون حكم الإمام وسلالته فأراد سحبه لمنطقة بعيدة قائلاً له:

- ليس مهما كيف يرون أنفسهم متمردين أو مستقلين، المهم هو نظرتكم لهم بما أنكم الدولة.. إن كنت ترى أن الجميع متمرد فأنت تعترف بخروجهم عن سلطانكم وعدم رغبتهم في الخضوع لك. أما إن كنت ترى التمرد فيمن يحاربكم فقط فأنت تضع في الحسبان أن هناك من يؤيدكم حتى وإن كانوا قلة أو مستضعفين.

يبدو أن هذه النقطة أعجبت الحاكم فقال وهو مبتسم:

- هل يعترف بسلطاننا؟

- بالتأكيد.. بما أنه على أرضك فهو يعترف بسلطانك. كما أعترف أنا بها

- ماذا لو حدث هذا في بلدكم أو فيما يجاوركم من البلدان والممالك في أوروبا..؟

بدت على وجه مارك ابتسامة واسعة وكأنه كان ينتظر هذه الفرصة قبل أن يجيب قائلاً:

- لن أتحدث عن عموم أوروبا بل سأتحدث عن بلدي رغم أن الشواهد كثيرة، حيث أن ويليام الثالث من أسرة أورانج كان نافذًا كحاكم عام في عموم الأراضي المنخفضة التي تشكل بلدي هولندا. ومنذ عشر سنوات هو ملك إنجلترا، ومع ذلك نأى بنفسه عن دمج البلدين أو الإضرار بإنجلترا بل قام بأعمال اقتصادية عظيمة ساهمت في إنعاش البلاد كتأسيس بنك إنجلترا وتحرير الصحافة.

- عجيب! ولماذا يفعل ذلك، في وقت كان بإمكانه أن يجمع البلدين ويحكمهما معا..؟

- شرح ذلك يا سيدي الحاكم يتطلب وقتًا طويلاً حيث كان يحكم قبله الملك جيمس الثاني الذي كان كاثوليكيًا بينما البلاد بروتستانتية مما أدى لنشوب ثورة استدعى إثرها النبلاء الأمير وليام من أسرة أورانج الهولندية للمساعدة- باعتباره زوجاً للأميرة ماري- ابنة الملك جيمس - فدخل بجيشه وتم إعلانه ملكاً بالمساعدة مع زوجته التي حكمت بشكل

فعلي وتوفيت قبل أربع سنوات. لهذا ياسيدي لم يكن الملك وليام الثالث ملكًا حقيقياً ودائماً، أكثر من كونه ذهب ليحمي البروتستانتية، ولم يكن له التأثير الكبير سوى تنظيم بعض الحدائق الملكية على الطراز الهولندي، بل كان للتجار الهولنديين تأثيراً أكبر حينما ذهبوا للاستثمار واستغلال الفائض المالي داخل البلاد حتى قاموا ببناء الكثير من المنازل على الطراز الهولندي في قلب لندن.

ابتسم االحاكم وكأنه انتصر في معركة وهو يقول:

- إذن الصراع هو صراع مذهبي: بروتستانت ضد كاثوليك، ونحن كذلك نحاول نشر مذهبنا..

لكل بلد وأرض تاريخها وإرثها ولغتها وأصولها، وهناك الكثير من الشواهد في أوروبا لملوك حكموا أكثر من بلد نتيجة للحرب أو للتوريث ولم يسعوا لدمج ممالكهم أو تدمير الممالك المغلوبة ولهذا أوروبا أن تنهض كما ترى..

كان مساعده واقفاً بجانب الإمام ثم خرج أثناء الحديث وعاد بعد دقائق ليقترب من الحاكم ويهمس له بحديث طويل، وقد لاحظ صابر ومارك بعض التغير على محيا الحاكم الذي كان يهم بالنهوض إلا أن مرافقه أشار إليهما بإمالة ذقنه وكأنه يخبره بوجودهما فعاد الحاكم إلى وضعية الجلوس وهو يحاول البقاء هادئا قائلاً لهما:

- انصرفا الآن لأخذ راحتكما، وسنعاود الحديث في يوم آخر.

نهض من مكانه وهو يقول بصوت تحذيري:

- لكن لا مغادرة ولا خروج من حدود المخا قبل أن آذن لكم بذلك.

ساروا ثلاثتهم إلى خارج المبنى. حينها قال لهما المساعد:

- أرجو ألا تغضبوا، علاقة الإمام بيافع معقدة جداً ورغم أنهم ساعدوا والده إبان حكم الإمام المؤيد وساعدوه هو شخصياً، لهذا فالحاكم يتعامل معكما بمبدأ سياسي وصولي خشية من الإمام..

تحدث صابر هذه المرة وقال:

- كيف ساعدت قبائل يافع والده؟!

- أثناء حكم الإمام المؤيد طالب شقيقه - جد هذا الإمام ووالد والده أحمد بن الحسن فطالبه الإمام- بتسليم خزنة والده وهو في حصن ذي مرمر بالغراس لكنه هرب وكان قد سبق لهما أن تحاربا، فأرسل الإمام جيشاً لمحاربته فهرب إلى عدن برعاية أمير الحسين بن عبدالقادر اليافعي ثم غادرها إلى يافع مستنجداً وتزوج منهم ودعمه السلطان الكثيري كذلك مع قبائل يافع بالهجوم على فعطبة، فقام الإمام المؤيد بإرسال رجاله وتدمير الحصن وطرد رجاله وزوجته الأولى حورية شرف الدين وولده الصغير الذي هو الإمام نفسه..

- يفترض به أن يكون ممتنًا ليافع!!

- أتفق معك لكن كرسي الحكم أقوى من أي شيء، وهو نفسه عندما كان يتمرد على الإمام المؤيد الصغير كان يراسل قبائل يافع للهجوم على قعطبة لإضعاف حاكمها علي بن المتوكل، ووقف معهم وحرضهم ضد والي الإمام على يافع وهو عمه. وعندما أرسل المؤيد جيشًا على يافع- رغم

دفعهم الزكاة- قام إمامنا وهو والٍ على المنصورة في الحجرية بإرسال ولده إلى يافع لمساعدتهم في صد جيش الإمام وهكذا انتصروا وأصبحوا شبه مستقلين بسبب خلافات الأئمة وأقاربهم ونكايتهم ببعضهم بعضا.

- وكيف تغيرت هذه العلاقة..؟!

سأل مارك باهتمام فأجابه:

- يبدو أن الإمام المؤيد أدرك العلاقة بينه وبين قبائل يافع وحتى يكف شره منحه ولاية يافع فبدأ يشن الحروب على حدود يافع والمناطق المحيطة بها، وعندما أصبح إمامًا وجه كل جهوده لإخضاع يافع وسائر المشرق: فتارة يحاربهم وتارة يخضعهم وتارة يتحررون وتارة يتصالحون.. وكما كان يفعل هو سابقا كان هناك من يراسل يافع من أقاربه ويمنحهم الأموال حتى يثوروا ضد الإمام كما فعل الحسين بن المتوكل..

كانوا قد وصلوا إلى باب القصر فتوقفوا ريثما ينتهي الوزير من حديثه:

- رغم عشرات الحروب والفوضى لكن الأمور تتجه إلى الصلح أخيرًا وسوف تتوج بالمصاهرة؛ حيث سيتزوج من ابنة صالح بن هرهرة سلطان يافع العليا وابنة معوضة بن عفيف سلطان يافع السفلى إلى جانب ابنة السلطان الرصاص في البيضاء التي تزوجها قبل ثلاث سنوات. وسوف تأتي وفود يافع لتوقيع الصلح والمعاهدة خلال أيام. وهذا ما همست له به مقابل دفع الزكاة وتعيينهم في مناصب سياسية.

ابتعد عنهم عائداً وهو يقول:

- لا تقلقوا سوف تتم الأمور على خير بإذن الله، وسوف تغادرون.

لكن مارك أراد أن يبدي حسن نيته للحاكم قائلاً للمساعد:

- أريد مخاطبة الحاكم مرة أخرى بأمر خطير، ولن أنسى جميلك هذا..

بدا الاهتمام والجشع على وجه مساعد الحاكم وهو يعلم أن معنى كلام مارك تقديم بعض الهدايا والأموال له. لهذا فقد وعدهما بالعودة إلى الحاكم لإخباره وأن عليهما الانتظار في مكانهما، وهو ماحدث بالفعل بعد دقائق معدودة. فاصطحبهما إلى حجرة الحاكم مجدداً. وعندما وصلوا بادر مارك قائلاً:

- أنت تظن يا سيدي الحاكم بأني كنت أقوم بتهريب الفتى على الرغم من أن هذا غير صحيح، لكنني سأمنحك هدية لإثبات حسن نيتي..

بدا الاهتمام المشوب بالترقب على وجه الحاكم وهو يشير إليه بالحديث. فقال مارك مستطردًا:

- أعتقد أننا سمعنا جميعاً عن سيطرة جنود المحطوري على مناطق كثيرة في تهامة ومن ضمنها اللحية..

كان ينظر إلى عيني الحاكم مباشرة، وقد ابتسم في قرارة نفسه وهو يجده منصتًا بحذر شديد. فواصل حديثه قائلاً:

- وأعتقد أننا نعلم ان النية ليست اللحية فقط بل السيطرة على كل الموانئ والسيطرة على الموانئ بعد أن سيطر على معظم الجبال وقتل الأجانب والمواطنين في المناطق التي سيطر عليها..

ثم مال برأسه إلى الأمام وهو يعطي صوته زخماً تأثيرياً قائلاً:

- وكذلك قتل كل الحكام..

- وضح كلامك أكثر!!

كان صوت الحاكم متحشرجًا وهو يتحدث.. فواصل مارك كلامه بنبرة واضحة:

- هناك خلية للمحطوري في المخا..

بدت الدهشة على وجوه الحاضرين جميعهم داخل القاعة بمن فيهم صابر الذي وقف مذهولًا وهو يخشى أن تكون لعبة من ألاعيب مارك. ووسط استفسارات الحاكم وتلهفه، لكنه استطاع أن يأخذ وعداً من الحاكم بأن يخرج هو وصابر فورًا وأن تكون له الحرية في الذهاب إلى السفينة في أي وقت وأن يصطحب من يشاء، وهو ماحصل عليه فقال موجها كلامه للحاكم:

- بين وكالة الحاج أيوب العريقي وباب صندل توجد مجموعة من الدور، أحدها بطابقين وجميع نوافذه مغلقة طوال الوقت وبابه مطلي بلون أزرق وهو الوحيد وسط تلك البيوت بهذا اللون. يوجد في ذلك الدار شخصان من المرتفعات بملابس رثة لا يخرجان إلا نادراً واسمهما عبدالملك وحسين والمراسل الذي يأتيهما، اسمه عبدالخالق.

توقف مارك لأجزاء من الثانية وهو يعطي الحاضرين فرصة لاستيعاب كلامه فاستطرد قائلاً:

- إنهما من عيون المحطوري على المخا ويأتيهما كل بضعة أيام مراسل لنقل الرسائل والأخبار وتلقي التعليمات واليوم هو موعد وصول المراسل

عند المغرب.

لم يكن أمام الحاكم سوى الإفراج عن صابر ومارك، بعد أن أيقن بعدم وجود نية للهرب أو مخالفة الاتفاقية إثر ليلة متعبة في السجن مقتنعاً (كما أخبرهما مساعده حفاظًا على مكانة الحاكم).

وعند خروجهم وتوجههم إلى السفينة كان صابر أكثر المتفاجئين بكلام مارك الذي وقف صامتاً أمام أسئلة صابر المتتالية حتى انتهى منها. ثم قام بتذكيره عندما التقاه لأول مرة في وكالة الحاج أيوب مع وجود شخصين غريبي الأطوار يدعيان أنهما حضرا إلى المخا من أجل بيع البن ويستفسران عن الأجانب وجنود الحاكم وهو ما أثار شكوكهما ثم شاهدهما في يوم آخر وهما يتلصصان على الوكالة الانجليزية وتتبعهما إلى منزلهما. ثم قام بمواصلة المشي بكل بساطة وسط ضحكات صابر وإعجابه على الرغم من أنه لايزال مستغرباً من تصرف مارك الذي لم يدلِ باسم التاجر الذي استأجر المنزل لجواسيس المحطوري في بيت الفقيه.

ومن أجل تعويض الوقت الضائع ليلة البارحة في الحبس توجه مارك رفقة صابر إلى القارب مباشرة الذي ينتظرهما منذ ليلة البارحة للذهاب إلى السفينة. كان صابر متحمساً للصعود على ظهر السفينة وكان كلما اقترب منها كانت السفينة تزداد حجماً وتتضخم في عينيه وسط تأرجح القارب بفعل ارتطامه بالأمواج الخفيفة الزرقاء. ورغم إدراكه بأن السفينة ضخمة فلا يمكن أن تسع أكثر من ثلاثمائة شخص إلا بسبب ضخامتها، لكنه كان يتخيلها بحجم مبنى كبير في المخا: كسوق المدينة أو جامعها.وبمجرد أن وصل القارب إليها وارتطم بجانبها بلطف كما ترتطم

البيضة بجسد الدجاجة التي باضتها وهي تتأرجح كانت عينا صابر على اتساعهما من شدة الذهول. هذه السفينة أكبر من أي مبنى شاهده طوال حياته بل أكبر من مجموعة من المباني، وهو يسبح الله في نفسه. وحين شاهد مارك ذهوله طلب من المجدفين أن يأخذوا دورة حول السفينة لكي يشاهدها صابر من كل الجهات، وهو رافع رأسه يحاول أن يصل نظره إلى أعلاها ثم يحاول أن يتجاوز سطح السفينة إلى الصواري الشامخة في الأعلى التي ترتفع إلى مافوق ثلاثين مترًا فوقهم. كانت الدورة كافية لمشاهدة روعة السفينة. وقد لاحظ صابر اختلاف مقدمتها عن مؤخرتها في البناء والشكل. وعندما أراد الاستفسار من مارك طلب منه الصبر حتى يصعدا إلى متن السفينة وسوف يأخذه في جولة في كامل السفينة وسوف يشرح له بها كل شيء.

صعدا إلى سطح السفينة من القارب بحبال خشبية متينة تصل من سطح البحر إلى سطح السفينة. وبعد الصعود قام مارك بتحية البحارة وتبادل الأخبار مع بعض الذين يعرفونه والمزاح مع بعضهم، بينما كان صابر مستنداً إلى حاجز السفينة ينظر إلى البحر مذهولًا من الارتفاع الكبير للسفينة وينظر صوب المدينة التي تبدو بأبنيتها البيضاء كتحفة جميلة من المرمر الصافي ومآذن مساجدها الثلاثة تبدو كأعمدة تربط التحفة بالسماء الفيروزية اللون في تلك اللحظات، وتحرسها على البحر قلعتاها الشامختان. وقد لاحظ صابر أن أرضية سطح السفينة في أماكن كثيرة مكونة من خشب متداخل الأعمدة بشكل مربعات مفتوحة، والذي يبدو أنه لتسهيل الرؤية وإصدار التعليمات من وإلى حجرة القيادة.

واستمر في تأملاته حتى انتهى مارك الذي سارع بتوجيه الحديث إلى صابر قائلًا له:

- مرحبا بك على متن السفينة «بيرين»

- نعم.. بيرين. لكل سفينة اسم وتاريخ وسجل إبحار..

بدهت الدهشة على وجه صابر وهو يسأل مارك مختبرًا:

- ماهو سجل بيرين؟

استدعى مارك أحد قادة السفينة الذي بدأ يسرد له تاريخ «بيرين» الحافل بفخر:

- بيرين من نوع سفن نسميه سفن العودة العابرة بنيت عام 1692 للميلاد في مدينة «دِلفت» بحوض السفن في ميناء «ديلفشيفن» على الضفة اليمني من نهر «نيووي ماس» طولها 145 قدماً وعرضها 37 قدمًا، أما حمولتها فتصل إلى مافوق 800 طنا.

نظر مارك إلى صابر نظرة ذات معنى وهو يقول:

لنبدأ من هنا، منتصف السفينة سيكون مكانًا جيدًا للانطلاق. ثم اتجه إلى حيث يقع الصاري وهو يشرح له قائلاً:

- هذا أكبر الصواري يرتفع إلى سبعة عشر متراً ويقع في أعلاه مكان يجلس به بحار لمراقبة الأجواء.. في حالة قدوم أية سفينة يقوم بتنبيه القبطان بالصراخ والذين في الأسفل يقومون بإيصال الصوت من خلال الثقوب في سطح السفينة. ويوجد في كل سفينة عشرة صوارٍ تختلف في حجمها وكذلك في أحجام الأشرعة التي تحملها وهي الآن مثنية كما ترى

بسبب توقف السفينة في الساحل.

- التسمية الشعبية للصاري هي الدقل؟!

- نعم، وهناك قصيدة لشاعر يافعي اسمه يحيى عمر(*) يتغنى بها البحارة والركبان:

«يا مركب الهند أبو دقلين
ياليتني كنت ربانك

أسعى بك البر والبحرين
وأحمل المال بأخنانك»

ثم التفت إليه صابروهو يغمز له بإحدى عينيه وهو يقول:

- طبعا هو يتغزل بحبيبته ويشبهها بالسفينة التي تملك دقلين بارزين والخن هو عنبر السفينة.

- تقريباً مثل جارتنا الجميلة فهي تملك دقلين بارزين وخنا متيناً..

ضحك الاثنان وهما يسيران باتجاه مقدمة السفينة من خلال العبور بحجرة مرتفعة تقع فوق سطح السفينة لها باب دائري الشكل من الأعلى وكان سقفها منخفضاً بشكل ملحوظ. وكان لابد من أن ينحنيا ليتمكنا من

(*) الشاعر يحيى عمر اليافعي: ولد في يافع عام 1642م وغادر في عمر العشرين إلى حضرموت والهند وتوفي عام 1749م في مدينة برودة الهندية. سيكون عمره خمسين عامًا في توقيت أحداث الرواية.

السير، وكانت الحجرة تشغل كامل مساحة المقدمة التي تضيق رويدا رويدا ماعدا مثلث صغير في المقدمة كانا يتجهان إليه. استمرا في السير إلى الجهة المقابلة حيث يقع باب آخر صغير جداً يتم الصعود إليه بثلاث درجات بسبب ارتفاع المقدمة. وبمجرد خروجهما كانا في مقدمة السفينة التي تتمدد خارج «بيص» السفينة وهو هيكلها حيث كان يرى صابر من مربعات الأرضية المثقوبة سطح البحر ويتمدد عمود خشبي ضخم جدًا من حيث الحجرة إلى خارج السفينة بعدة أمتار وهو يحمل صارياً آخر قصيراً يحمل أشرعة صغيرة على أعمدة أفقية تمتد فوقه. عندها أشار مارك إلى مربع خشبي يقع على يمينه صندوق صغير مطلي باللون الأحمر وتقع في أعلاه فتحط دائرية ويلتصق بجدار السفينة وقال له:

- هذا مرحاض السفينة

- حقا؟!

- نعم، الجلوس على الصندوق المفتوح والذي يحوي ثقبا في أسفله فتنزل الفضلات إلى البحر.

كان صابر مندهشًا وهو يقول متعجباً:

- هكذا أمام بقية البحارة!!

ضحك مارك وهو يشير إلى صندوق آخر في الجهة المقابلة له تمامًا على بعد مترين ونصف وهو يقول:

- هذا مرحاض آخر وقد يتقابل بحاران في نفس اللحظة.

ثم ذهب إلى حاجز السفينة الخارجي فوق المرحاض وهو يلتقط حبلًا

طويلاً يتدلى من فوق السفينة إلى البحر وهو يقول:

- هذا الحبل الطويل المفتول يظل داخل البحر، وعندما ينتهي البحار من حمامه يتم سحبه من البحر والتقاط طرفه غير المفتول ثم يضعه البحار بين قدميه وهو واقف لمسح مؤخرته ثم إعادته مرة أخرى للمستخدم التالي.

ظهر الاشمئزاز على محيا صابر الذي كان يتخيل مشاهد التغوط أمام الجميع، لكنه ظل صامتاً وهو يتابع مارك الذي عاد إلى حجرة السفينة التي كانت تشغل كامل المسافة بعرض السفينة في جهة المقدمة ولم تكن تحوي الغرفة سوى بعض الخزانات في جدرانها الخارجية، ثم قام بالتوجه إلى بابها الآخر الذي يقود إلى مؤخرة السفينة حيت تقع فسحة صغيرة تحوي سلمًا يقود إلى سطح السفينة وهو أعلى مكان في هيكل السفينة، ثم باب آخر مقابله حيث تقع غرفة القيادة التي يجلس به القبطان وقادة البحارة. لكن عند الجدار تقع مسطبة يقف عليها بحار يراقب من خلال الفتحات الموجودة في الجدار المواجه ويتم التواصل مع البحار الذي يقف في أعلى الصاري الرئيسي في حالة وجود سفن قادمة أو خطر من أي نوع، وهذا الشخص الذي يراقب في هذا المكان يقوم كل نصف ساعة برن الجرس النحاسي المثبت في الجدار من خلال مراقبة الساعة الرملية المثبتة في صندوق خشبي بجانب الجرس. حينها سأله صابر:

- ماذا لو نام أو لم يقم بعمله بشكل صحيح؟

ابتسم مارك وهو يشير إلى لوحة خشبية بجانب الجرس والساعة مثبتة في الجدار وتحوي ثقوباً صغيرة ثم قال:

- في كل نصف ساعة يقوم البحارة بإدخال مسمار في أحد الثقوب، وخلال فترة مناوبته يكون قد أدخل ثمانية مساميرفي اللوحة وعندما يمر القبطان أو المفتش يكون على علم بأنه يقوم بعمله بشكل جيد.

أبدى صابر اندهاشه وتفهمه الشديدين ثم قام بإدخاله إلى حجرة القيادة التي كانت تضم بعض الأرفف البسيطة المثبتة في الجدران ويتوسطها طاولة مستطيلة وبعض الكراسي في مقدمتها وعلى جانبيها وفوقها توجد بعض الأدوات والخرائط والأوراق. أخذ مارك أداة خشبية طويلة ونحيلة وفوقها قطعتان خشبيتان بشكل رأسي يتم تحريكهما للأمام وللخلف وأخبره أن اسم هذه الأداة (مجموعة يعقوب) ومهمتها مراقبة الأفق والشمس من خلال العمودين الخشبيين حيث يتم تحريك أصغرهما وموازنة أعلاه مع الأفق وأسفله مع الشمس. أما أكبرهما فيتم تحديد النجوم من خلاله وبالتالي معرفة الاتجاه الصحيح لسير السفينة.

- هل يمكن أن تضيع السفن أو تخطئ بالاتجاه؟

سأل صابر مستفهما.. فأجابه مارك:

- واحدة من ثلاثمائة سفينة تفقد اتجاهها وتضل طريقها فينتهي بها الحال بالغرق أو الاصطدام بالصخور أو الرمال

ثم توجه إلى صابر وقال له بصيغة السؤال:

- هل كنت تعلم أن السفينة تسير بسرعة مابين فرسخ إلى فرسخين

وفي حالة الرياح الشديدة قد تصل إلى أربعة فراسخ..؟

وبينما كان صابر مندهشاً من سرعة السفينة وقدرتها، تناول مارك دفتراً صغيرًا وأخذ يقلب الأوراق ويقرأ ما بها ثم يخبر صابراً بأن هذا دفتر الرواتب التي يدفعها القبطان، قائلاً:

- انظر يستلم قبطان السفينة 150 «جيلدر» في الشهر، رجل الصاري 58 «جيلدر» والجندي العادي 39 «جيلدر»، هناك للجنود الأقل مرتبة يستلمون 12 جيلدر وهكذا بقية الطاقم الذي يأتي نصفهم من المقاطعات الألمانية.

«مثل «فريدريك» عرفت أنهم يعيشون في ممالك واقطاعيات متناحرة. لهذا هم يبحثون عن وظائف لديكم ولدى الآخرين

- نعم، لا تنسَ أن الرواتب لدينا هي أفضل من التي يستلمونها في مقاطعاتهم

أشار مارك إلى باب صغير يقع في الجهة المقابلة يقود إلى مؤخرة السفينة ويفصل بينها وبين حجرة القيادة ممر صغير من أجل حماية القبطان وطاقمه من قذائف العدو، ويقع في هذا الممر مرحاض صغير مثل المرحاضين الموجودين في مقدمة السفينة لعموم البحارة. كما توجد نافذة صغيرة مقابل المرحاض تطل من مؤخرة السفينة لمراقبة البحر..

اتجه «مارك» إلى سلم يقع قريبًا من باب الدخول الذي استخدموه عند الدخول من سطح السفينة وقام باستخدامه للنزول إلى الأسفل فتبعه بسرعة حتى وصل في نهايته إلى حجرة واسعة تشغل كامل مساحة

السفينة وسقفها أعلى من تلك في الأعلى فقال له مارك مشيراً بكامل يديه إلى الحجرة المظلمة بعض الشيء:

- هنا ينام مائة بحار بشكل كامل، يعملون هنا ويلعبون هنا، ومهمتهم هي تشغيل المدافع..

قام مارك بتحية البحارة المتبقين في الحجرة - فكما يبدو لم يغادر صوب المدينة منهم سوى البعض- كانت هناك بعض المدافع الموجودة في مكان غير بعيد عن جدار السفينة وأمام كل مدفع فتحة صغيرة في جدارة السفينة مغطاة بقطعة خشبية يتم رفعها عند استخدام المدافع.. كان مارك قد اقترب من أحد المدافع وهو يقول:

- ثمانية أشخاص يقومون بتحريك المدافع صوب الفتحة بالجدار في حالة الحرب.. يقومون بسحب المدافع إلى الخلف لتقيمه بالقذائف الكروية كالتي هناك.

كان يشير إلى صندوق صغير خلف صابر تقع به مجموعة من الكرات الحديدية متوسطة الحجم ثم واصل حديثه:

- ثم يتم إشعال الفتيل هنا في مؤخرة المدفع ثم يتم تحريك المدفع حتى تخرج فوهته من الفتحة بانتظار خروج القذيفة خلال نصف دقيقة وموازنة المدفع مع تأرجح السفينة بفضل الأمواج حتى تكون الطلقة جاهزة للانطلاق مع هبوط المدفع بين الموجة الأولى والتي تليها..

أبدى صابر إعجابه وهو يقول باندهاش:

- هذا الأمر يحتاج للكثير من الخبرة

- نعم، في كل جانب من جوانب السفينة يوجد سبعة عشر مدفعاً، واثنان في المؤخرة سوف نشاهدهما بعد قليل..

- كم هي المسافة التي تطلقها المدافع؟

- تقريباً أربعمائة متر، وهناك مدفع قنص أكبر يطلق إلى مسافة ثمانمائة متر

- ماهو الفرق بين المدافع في قوة الإطلاق والقذف؟!

- حجم المدفع وحجم القذيفة في حالة المدفع الكبير تكون القذيفة أصغر حجمًا لتصل إلى مسافة أطول..

كانت المدافع مربوطة بحلقة معدنية مثبتة في أرضية الحجرة الخشبية على بعد متر من جدار السفينة الداخلي، أمام كل نافذة يقبع مدفعها. وقد عرف صابر أن المدافع يتم تثبيتها في حالة عدم وجود الحرب حتى لا تتحرك مع الأمواج وتأرجح السفينة فترتطم بجدار السفينة أو يسبب تجمعها في جهة واحدة إلى انقلاب السفينة وميلها. وقف صابر ينظر إلى جزء من أرضية الحجرة: عبارة عن خشب بمربعات مفتوحة كالذي في ظهر السفينة بالأعلى على عكس باقي أرضية الحجرة المكونة من ألواح خشبية متراصة بإحكام فاقترب منه مارك وهو يقول له:

- هذا مجرد غطاء يتم رفعه عند إنزال البضائع وهناك فتحة في السقف.. هناك.

كان يشير إلى سقف الغرفة على يسارهم وهو يواصل كلامه:

- يتم إنزال البضائع بعد ربطها معاً بواسطة بكرات إلى غرفة التخزين على

بعد أكثر من سبعة أمتار من هنا، وسوف نذهب إليها

- هل البضائع كلها مكونة من البن؟!

- البن يشكل جزءاً من بضائعنا. نحن نقوم بجلب كل منتجات الشرق وبيعها بين موانئ الشرق لتوفير تكاليف الرحلات وإيصال جزء منها إلى أوروبا..

اتجه مارك إلى آخر الحجرة حيث يقع باب صغير.. عندما وصل صابر إليه قال مارك:

- هذه حجرة الطبخ.

كان يشير إلى حجرة أخرى داخل حجرة المدافع وهي أكثر ظلاماً، وكان هناك أربعة من الرجال يقومون بالطبخ. وأشار مارك إلى دلو معلق في عمود خشبي وسط حجرة الطبخ وداخل ملعقة خشبية عميقة الصحن في طرفها، وطويلة الذراع. ووجه مارك كلامه إلى صابر وهو يضحك:

- عند الساعة التاسعة صباحًا يقوم كل البحارة بالشرب باستخدام هذه الملعقة لتنظيف الأحشاء.. هل تعرف ماذا يشربون؟!

- لا أدري!! ربما بعض التوابل الحارة.. بما أنكم تتاجرون بها.

- إنهم يشربون بعض الجعة الهولندية التي نسميها «جينيفر»

- أووه..! هذا حرام في ديننا. هل لابد منها

- نعم، أعلم ذلك ولكن هذا مايحدث..

بدأ صابر يتعود على ضوء المطبخ الضعيف (هي حجرة مربعة الشكل يقع في جدارها المقابل للباب بعض الرفوف الخشبية وعلى اليمين كوة

صغيرة يدخل منها بعض الضوء)، وقد أشار مارك لوعاء صغير دائري الشكل من الفخار وبه مقبضان من جانبيه وفي أسفله وعاء آخر أكبر حجما ملتصق به وهو يقول لصابر:

- هذا وعاء طبخ الجبن الهولندي اللذيذ، يتم تحريك المحتويات من هذه الفتحة الواسعة على النار بملعقة فخارية طويلة فيصبح الجبن بعد أن يبرد بشكل كروي كالقرص المرتفع بعض الشيء، لكنك لن تجد شبيهاً له في كل العالم بلذته

- لهذا يسمونكم آكلي الجبن!

ابتسم مارك وهو يشير إلى برميل كبير بجانب وعاء الجبن وقال:

- هذا الماء للشرب وبسبب طول التخزين يصبح ملوثًا بعض الشيء ويسبب الأمراض فنضيف له بعض البيرة

- يا إلهي!! حتى في الماء.. أنت لا تريد مني السفر على متن سفنكم

- اثنان في المائة فقط من مجموع الماء للتعقيم.

- في ديننا يقول النبي عليه الصلاة والسلام (ما أسكر كثيره فقليله حرام)

- أتفهم هذا وأعرفه. سنجد لك حلاً يا صديقي إذا نويت السفر يوماً.

وبينما هم أمام باب حجرة المطبخ بانتظار الغداء ويتجاذبون الحديث مع بقية البحارة ويتبادلون القصص التي مرت بهم سمعوا أصوات صراخ قادم من الأسفل؛ حيث توفي أحد البحارة من ضمن ثلاثة بحارة مرضى منذ ما قبل خروجهم من «سورات» وكانوا يظنون أنه سيشفى كما يحصل

مع معظم البحارة، حينها التفت مارك إلى صابر وقال له هامساً:
- يبدو أن هناك معلومة عن السفينة، لم أخبرك بها وستشاهدها بنفسك..

قال هذه الجملة وهو يربت على كتف صابر وهو يسير متجهًا إلى أحد النوافذ في نفس الحجرة التي أكلوا بها، وقام أحد البحارة بإخراج طاولة وفتح النافذة التي كانت مغلقة، ومارك يقول لصابر:

- هذه طاولة الدفن
- لم أفهم!!
- ستشاهد بعد قليل..

عرف صابر أنهم يقومون بتغسيل الميت كما يحدث في الإسلام لكن الطريقة تختلف، وبعد تغسيله أحضروه إلى حيث يجتمعون حول الطاولة.. كان الميت في العقد الخامس من عمره بشعر أشقر مخلوط بشعيرات رمادية وقليل منها بيضاء، وكانوا قد قاموا بإلباسه ملابس نظيفة في الأسفل ثم قاموا بوضعه فوق الطاولة المرتفعة إلى مستوى النافذة، ثم قاموا بلف جسده بلفافة قماشية كبيرة، ثم قاموا بإحكام وثاقها بالحبال حول جسد الميت، ولكن أحد الحبال يتم ربطها فوق أنفه بكل قوة فإذا صرخ فهو حي- كما أخبره مارك- وإذا لم يصرخ فهو ميت.

أبدى صابر الكثير من الشفقة في ملامحه وهو يسأله:

- هل يموت الكثير من البحارة؟
- في المتوسط من بين ثلاثمائة وعشرين بحارًا - في كل سفينة - يموت

عشرة بحارين في كل رحلة

- عدد كبير.. محزن هذا الشيء!

تقدم أحد البحارة الذي يبدو أنه يقوم بمهام الكاهن أو ربما يكون أكثرهم تمسكا بتعاليم الكنيسة. وكما أدرك صابر فإن تعاليم الكنيسة البروتستانتية متخففة كثيرًا في إجراءاتها، بل وفق تعاليم «مارتن لوثر» الذي كان يرى أن الكتاب المقدس لا يقدم أية معلومات عن هذا، لكنه في نهاية حياته أكد أنه لايرى تقديم بعض الصلوات خطيئة، لكن بلا مبالغات أو طقوس كثيرة؛ لذا فقد قام كاهن السفينة كما يسمونه بتلاوة بعض الصلوات على جسد الميت ورش الماء المقدس عليه. وبينما هم يستعدون لإلقاء الجثة في البحر من خلال النافذة أمامهم أخذ صابر يهمس لمارك متسائلاً:

- لماذا لا تقومون بدفنه في المخا؟!

- نحن تعودنا على هذا، والذهاب به إلى المدينة وأخذ الإذن من الحاكم سيتطلب الكثير من الوقت..

ثم أشار إلى الجثة وهو يقول:

- يتم ربط قذيفتين من قذائف المدفع عند قدميه داخل لفافة الأقمشة حتى يهبط إلى الأسفل فلا تبتلعه أسماك القرش - مادام في البحر فسوف تهاجمه لأنها تعيش في كامل البحر..

- أسماك القرش لا تستطيع الغوص إلى الأعماق والبقاء دون حركة حتى تلتهم الجثث، وذلك لأنها لا تمتلك عضلات ضخ المياه في رئتيها

فتنفجر، ولذلك توقفها عن السباحة، فيغرقها..

أبدى صابر اندهاشه وهو يقول منبهرًا:

- سبحان الله!! أسماك تغرق وهي مخلوقة للبحر!

وماهي إلا لحظات حتى قاموا بدفع الجثة من فوق الطاولة لتنزلق من خلال النافذة إلى البحر وقد أخذ كاهن السفينة بمراقبة الجثة وهي تغوص من خلال النافذة الضيقة، قبل أن يعود برأسه واجماً كما هو حال الجميع.

وحين حان وقت الغداء تجمع الجميع في حلقات كل مجموعة من البحارة يأكلون في مجموعة واحدة والجميع صامت، وكان الغداء لحم الخنزير الذي كان مارك متشوقًا له لتناوله منذ أشهر طويلة بسبب عدم وجود الخنزير في المخا وكامل عموم اليمن، كما أنه يمنع إحضاره لليابسة، فقد يتساهل اليمنيون مع الربا والخمور والزنا للأجانب وفق الاتفاقيات المبرمة، لكنهم أبداً لن يتساهلوا مع وجود الخنزير. أما صابر فقد أحضر له الطباخون صحنًا من الخبز ولحم الماعز والأرز وكذلك الجبن الهولندي اللذيذ. حينها عرف صابر أن هناك حجرة عند مؤخرة سطح السفينة عبارة عن مخزن للمواشي والطيور التي تكفي بحارة السفينة لأشهر الإبحار الطويلة، ويتم ذبحها وتنظيفها وتقطيعها على سطح السفينة قبل إنزالها للمطبخ. وبعد تناول الغداء قاموا بارتشاف بعض القهوة من البن المزروع في جاوة والذي لم يكن بجودة البن اليمني كما أن مناعة أشجار البن ضعيفة بعد أن تعرضت لوباء قوي يدعى صدأ البن الذي دمر الكثير

من الأشجار والثمار في كل المناطق ولحسن الحظ لم يصل هذا المرض إلى اليمن التي يبدو أنها محمية بقدرة الله.

سقف الحجرة كان مرتفع بعض الشيء عن التي في الأعلى وذلك لتسهيل حركة البحارة أثناء تحريك المدافع. وقد شاهد صابر آلة معدنية مرتفعة يبلغ طولها نصف متر مع ذراع معدنية طويلة عرف من مارك أنها مضخة مهمتها إخراج المياه التي تتسسلل إلى حجرات السفينة السفلية، وفي كل طابق توجد مضخة خاصة بها، كما كانت هناك اسطوانة معدنية عريضة بعض الشيء ومرتفعة وتوجد بها ثمانية فتحات مربعة في مناطق مرتفعة على هيكل الاسطوانة الخارجية، وهذه الاسطوانية مطلية باللون الأبيض وبألوان العلم الهولندي الثلاثة بشكل طولي مائل. وعند سؤاله لمارك عن هذه الاسطوانة عرف منها أن هذه الاسطوانة عندما يريد القبطان تحريك السفينة يميناً أو يسارًا أو في حالة الدوران يلقي الأوامر على البحارة فيقوم كل أربعة منهم بحمل عمود خشبي مخصص وإدخاله في أحد الفتحات وهكذا يفعل البقية في كل فتحة فيكون الإجمالي اثنان وثلاثون بحاراً موزعون على ثمانية أعمدة خشبية يقومون بتدوير الأسطوانة يمينا أو يسارا فيتحرك عمود السفينة المخصص للحركة على طول مقدمة السفينة من الأعلى للأسفل في هيكل السفينة الخارجي، وهذه الأعمدة في حالة عدم الاستخدام تكون مثبتة في سقف الحجرة ،حينها أخبره صابر بأن الأسطوانة وعمودها الخشبي في الخارج يسمونه في اللغة العربية بالسكان وأن هذه تسمية عربية قديمة قد وردت في معلقة الشاعر الجاهلي طرفة بن العبد حين قال واصفاً ناقته ومشبهاً لها

بالسفينة:

«وأتلع نهاض إذا صعدت به كسكان بوصي بدجلة مصعد.. »

بعد أن أكملوا شرب القهوة نهض مارك مصطحباً صابر إلى فتحة واسعة في أرضية الحجرة تقود إلى الطابق السفلي وهو الطابق الأول في السفينة الذي يكون على مستوى سطح البحر أو أعلى بقليل، لكنه توقف عن الفتحة وهو يشير لصابر بالاتجاه المعاكس وهو يقول له:

- هذا هو اتجاه مؤخرة السفينة، ونحن في الطابق الثالث من جهة الأسفل الذي يوجد أسفله طابقان وأعلاه طابق ثم سطح السفينة، وفي مؤخرة السفينة يوجد مدفعي القنص الذي أخبرتك عنه ويقذف إلى مسافة ثمانمائة متر وذلك لحماية السفينة في حالة الفرار أو المراوغة والدوران..

بدأ مارك بالنزول (يتم النزول من خلال ركائز خشبية بارزة ومثبتة في جدار السفينة على مسافات معينة تسمح بوضع القدم عليها للنزول أو للصعود) لكن بمجرد النزول أدرك صابر أن الرائحة في هذه الحجرة لا تطاق والهواء مكتوم كأنهم ولجوا إلى مدفن للحبوب المنتشرة في عموم الجبال اليمنية حيث يقوم اليمنيون بتخزين الحبوب في حفر منحوتة في الصخور الصلبة ثم يتم تغطية فتحتها بالصخور والطين بإحكام شديد، وهذه الطريقة كفيلة بتخزين الحبوب لشهور طويلة وربما لسنوات دون أن تتعرض لتلف الهواء أو الرطوبة كما أن هذا يمنعها من الإنبات.

شعر صابر بالضيق في بادئ الأمر لكنه فوجئ عندما شاهد عشرات

البحارة يجلسون على أرضية الحجرة وقد انتهوا من تناول طعامهم وسط القليل من الضوء في هذا المكان من السفينة الذي لابد أن يكون خاليا من النوافذ والفتحات لقربه من البحر. وعندما أدرك مارك ضيق صابر حاول تهدئته وأخبره بأن يتنفس ببطء قائلاً له:

- في هذه الحجرة يعيش مائة بحار يمنع عليهم الخروج وقت الإبحار إلا للتغوط واستنشاق الهواء لساعة ثم العودة وعند الحرب يمنع عليهم المغادرة لأي سبب من الأسباب حتى للطعام أو للتغوط، يأكلون ويتغوطون هنا على أرضية الحجرة، وفي حالة الرسو خارج الديار يسمح لبعضهم بالخروج بالتناوب

أصيب صابر بالدهشة وشعر ببعض الاشمئزاز، لكنه أدرك أن السبب هو أنه في حالة الحرب ومقتل الكثير من البحارة في الأعلى يكون هناك من يمكنه التعويض والنجاة بالسفينة أو استمرار الحرب. وزادت دهشة صابر حينما علم أنه بعد وصول السفينة يتم تنظيف الفضلات من خلال رش مدقوق البارود عليها وإشعاله مع الحفاظ على خشب الأرضية من الحريق، وهذا هو سبب الرائحة المكتومة للحجرة بسبب آثار الغائط والبارود المحروقة التي تمنع دخول الهواء.

الحجرة واسعة وتحتل تقريبا كامل هيكل السفينة السفلي لكن سقفها منخفض للغاية ويتطلب السير بشكل أقرب إلى وضعية الركوع للتمكن من السير. وبالقرب من فتحة النزول إليها تقع فتحة صغيرة تقود للطابق السفلي الأول حيث حجرة تخزين البضائع التي يتم شحنها ويتم إنزال البضائع من خلال الفتحات في أسقف الطوابق التي شاهدها بالأعلى

وباستخدام بكرات حديدية دائرية تدخل بها بالحبال من أطرافها ويستطيع شخص واحد إنزال أكثر من مائة رطل بسهولة ويسر بيد واحدة بعد أن تقوم البكرات بتقليل الوزن إلى ربع وزنها الحقيقي، وبجانب حجرة البضائع توجد حجرة تخزين البارود المطحون الذي يستخدم في حشو قذائف المدافع وكذلك الأسلحة المختلفة من بنادق ومسدسات مختلفة الأحجام والأنواع. وعندما استغرب صابر من وجود حجرة للبارود في مؤخرة السفينة وفي الطابق الأسفل ومدى الأمان من عدم انفجاره لأي سبب داخلي أو في حال تلقي قذيفة من سفن الأعداء، أخبره مارك بكل بساطة أن على الخصم أن يجيد استهداف المكان المخصوص وهذا صعب جداً ولا يتحقق بشكل دقيق لقرب الحجرة من سطح البحر أو أسفله كما أنه يمنع منعاً باتاً إشعال أي نار في هذه الطابق.

مع مرور الوقت أصبح مارك يشرح بشكل سريع أجزاء السفينة بعد أن بدا له أن صابراً قد استوعب في ذهنه فكرة السفينة وصورة هيكلها وطوابقها، لذا لم يعد صابر يسأل كثيرًا وهذا ساعد مارك في الإسراع لكنه كان متحمساً للغاية وهو يظهر خبراته ومعرفته بكامل تفاصيل السفينة ومهامها. ثم عادا إلى سطح السفينة حيث الصواري والأشرعة وقد أخبره مارك بأن الحبال الموجودة في عموم السفينة تصل إلى أكثر من ثلاثة عشر ميلاً تشكل حبال شد الأشرعة وتثبيت الصواري والبضائع وغيرها. ولم ينسَ مارك أن يخبر صابراً عن وسائل العقاب للمخالفين أو المتمردين أو من يتلفظ على القبطان أو غيره بسوء: إما من خلال أداة خشبية يتم إدخال رأس المخالف ويديه وإغلاقها ويظل في وضع الوقوف لفترة العقاب،

أو من خلال إحضار سكين وإدخاله في راحة يد المخالف أو المتمرد على عمود الصاري الكبير.

فور إبحار السفينة «بيرين» عادت المدينة إلى هدوئها السابق بعد حالة الصخب والحماسة التي أنزلها معهم البحارة إلى المدينة التي كانت سعيدة بهم، كما هي سعادة التجار المحليين الذين كانوا ينتظرون وصول السفن بفارغ الصبر لبيع بضائعهم وتحصيل أموالهم.

أجرى السيد «فليتزر» اجتماعاً مع مارك وطلب من صابر الحضور الذي شعر بالغبطة والامتنان، وفي الاجتماع أشاد بهما وبما حققاه في العمل ووجه إشادة خاصة له ومنحه قطعتين فضيتين هدية خاصة منه؛ مؤكداً له رغبته بالحصول على جهد أكبر في قادم الأيام. وفي الاجتماع كلفهما السيد «فليتزر» بالسفر لزيارة الإمام لمنح الضريبة السنوية المتفقة للإمام مقابل مكافأة، وهو ما شكل مفاجأة لكليهما فلم يكن مارك يتوقع أن يعجب السيد «فليتزر» بفتاه صابر بهذه السرعة وإن كان يدرك جيداً حسن اختياره وكذلك لم يكن يتوقع أن يجعله يسافر معه إلى ذمار في مهمة رسمية.. أما صابر فلم يكن يتوقع أي شيء بتاتاً بل كان يؤدي عمله فقط بصورة طبيعية لكنه كان سعيدًا، وليلتها أخبره مارك بسعادته وسروره البالغين بما قدمه وأخبره بأنه كان فخورًا أمام رئيس المكتب وأن صابراً لم يخيب ظنه، ولهذا فقد قام بإعداد وليمة خاصة في المنزل بحضور «مزنة» و«روجا» وكانت الوليمة مكونة من اللحم والمرق والحلبة والخبز والأرز الذي كان صابر يتذوقه للمرة الأولى في حياته، فقد أصبحت

الشركة الهولندية تربط العالم ببعضه فأرز الشرق يؤكل في اليمن والبن اليمني يشرب في أوروبا وحرير الصين يلبس في كل مكان. ويومها نام صابر نوماً عميقاً كأنها نومته الأخيرة، ولم يعكر عليه صفو سعادته سوى مابلغه عن صديقه عبدالله، مع تنامي بعض الأخبار لمسامعه من بعض العمال تفيد بذهاب مجموعة منهم إلى عشش خارج المخا بمسافة طويلة يسكنها مجموعة من الناس يسمونهم الأخدام وهم مجموعة من المهمشين الرحل ذوي البشرة السمراء يسهرون معهم إلى أوقات متأخرة وهم يغنون ويرقصون.

لذا كان عليه كعادته أن يذهب إلى الشيخ طه في الجامع لكي يستشيره ويعينه فيما سيفعله مع عبدالله. لكن الشيخ عبدالله فاجأه حين طلب منه عدم التدخل، فأمثال عبدالله إن لم ينتبهوا للخطأ فلا جدوى ولو اجتمعت كل مخلوقات الله لثنيهم، ودلل على هذا بابن نبي الله نوح عليه السلام وقد عاش معه لعقود طويلة قبل الطوفان ومع هذا مات كافراً، ومن كان على هذا الشاكلة فذنبه في الإضرار بمن حوله أكبر من الإضرار بنفسه، فقال سيدنا أبي الحسن الشاذلي: (إذا أهان الله عبداً كشفَ لهُ حظوظَ نفسه وسترَ عنه عيوبَ دينه فهو يتقلبُ في شهواته حتى يهلك، ولا يشعر) وقال تعالى في سورة الكهف: ﴿ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴾، والخشية هي الخوف الذي يشوبه تعظيم، وأكثر ما يكون عن علم بما يخشى منه، وأنه يخشى عليه أن يضطر من باب الصبر والمرافقة أن يسحبه إلى طريقه. وأما هؤلاء المهمشون فقد أكد له الشيخ أنهم كانوا أعوانًا وجنوداً في دولة بني نجاح التي كانت عاصمتها في زبيد

وحكمت كامل تهامة لأكثر من قرن منذ عام 412 للهجرة، وكان نجاح مولى حبشي وكان له جنود وأتباع جلبهم من الحبشة وكذلك فعل ذريته حتى جاء شخص زاهد اسمه علي بن مهدي الرعيني عام 546 للهجرة، وحرض الناس ضد بني نجاح وكان مما قاله في خطبته: (لأخدمنكم ببنات الحبشة وإخوانهم) وحاصر زبيد حتى سيطر عليها وقتل بني نجاح واستولى على أموالهم ولهذا يقال لهم أخدام بسبب كلام علي بن مهدي كما وصلنا. ويبدو أن بعضهم ظل يعيش متنقلاً في مجموعات منعزلة على أطراف القرى والمدن يمارسون المهن الدنيا وأعمال الرقص والغناء ولا يختلطون ولا يثقون بأحد سوى أمثال عبدالله من أصدقائهم أبناء القبائل. لذا فبعد حديث الشيخ طه قرر صابر العودة لمنزل مارك وترك عبدالله، إلا بما يلزمه من الصداقة والنصح الواجبين دون أن يقطع علاقته معه.

قام «مارك» بإعطاء صابر خطة العمل للفترة القادمة، حيث سيقومان بتجهيز هدايا الإمام التي سيصطحبانها معهما ومن ضمن الهدايا هي وجود بعض المصوغات الذهبية والفضية التي تحتاج إلى إصلاحات، لذا فسيقومان بأخذ المصوغات المعطوبة إلى موزع حيث يقيم يهودي اسمه «يائير» متخصص في هذا المجال وسبق لهم التعامل معه وتم تحديد اليوم التالي موعد ذهابهما إلى موزع، لكن مارك في نفس اليوم بالمساء شعر بالإعياء وبدأ يستفرغ مافي بطنه بشكل متكرر وفي منتصف الليل قامت مزنة بإيقاظ صابر لإخباره أن مارك أصيب بالحمى الشديدة، فذهب صابر إليه وبالفعل. كانت حرارة مارك مرتفعة جدا كأنه جفنة فخار مليئة بالقهوة الساخنة وكان جسمه ينتفض من البرودة ويهذي بكلام كثير

باللغة الهولندية، فقام صابر بتغطيته ببعض اللحافات والملابس وقام بتبليل وجهه وأطرافه ببعض الماء لتخفيف الحمى، ثم خرج لاستدعاء الطبيب الوحيد الموجود في مدينة المخا وهو إمام الجامع الأصغر ولديه خبرة بسيطة بطب الأعشاب. وبعد المعاينة أخبرهم الطبيب بأن مارك مصاب بمرض البُرداء وبعضهم يسميهم النافضة وكانت المرة الأولى التي يسمع بهذا المرض في حياته وقد أخبرهم الطبيب أن الناموس هو سبب نقل المرض بين الأشخاص وطلب منهم الطبيب إحضار ماء ساخن وأضاف له نبتة الشيح ثم قام بتحريكها في الماء الساخن والانتظار حتى أصبح الماء دافئًا ثم طلب منهم إعطائه لمارك على دفعات متقاربة حتى يستسيغه دون أن يتقيأ. بقي صابر إلى جوار مارك الذي استمر على حاله بين الحمى والبرودة حتى اليوم الثالث عندما استطاع أن يتحدث للمرة الأولى لكنه كان عاجزًا عن تناول الطعام، ويعاني من صداع شديد كأنه ضربات مطارق على خوذة حديدية كما وصفه هو بنفسه، ولم يكن يتذكر شيئًا من أحداث الليلة الماضية. وعندما أخبروه بما قاله لهم الطبيب طلب مارك من صابر أن يذهب إلى السيد فليتزر مدير المكتب ويطلب منه القليل من مسحوق شجر الكينا حيث أدرك مارك أنه مصاب بمرض الملاريا، وتم تحضير العلاج بنفس طريقة تحضير الطبيب للشيح يوم أمس بغليه في ماء ساخن ثم شربه. وعرف صابر من مارك لاحقاً بأنه قد أصيب به سابقاً في سورات بالهند وأن الأوروبيين يسمون هذا المرض بالملاريا وتعني هواء المستنقعات -عندما وصل إلى أوروبا قبل الميلاد حيث يتكاثر الناموس فوق المستنقعات والمياه الراكدة - ومنذ قرن من الزمان اكتشف

الإسبان علاجاً للملاريا من لحاء شجر الكينا المتواجد في بيرو عندما عولجت «كونتيسة» إسبانية تدعى «تشينشون» فسميت الشجر كينا على اسمها، وبعضهم يسميها مسحوق اليسوعيين أو المسحوق البيروفي، وأن هولندا أصبحت هي التي تستخلصه وتبيعه مع تنامي قوة هولندا الاقتصادية والعسكرية عبر شركتي الهند الشرقية والغربية على حد سواء. كان أكثر ما أدهش صابر قدرة مارك على سرد إنجازات شركات بلاده.

حاول إقناع مارك بالبقاء إلى جانبه بعد استمرار أعراض المرض من الحمى والصداع وآلام المفاصل بالإضافة إلى رعشات البرد التي تأتيه في المساء، لكن مارك طلب من صابر الذهاب إلى موزع- رفقة العم صالح- وإصلاح المصوغات عند يائير اليهودي وباءت كل محاولات صابر إثناء مارك عن قراره بالفشل الذريع، حيث كان صابر متخوفاً ومرعوبًا من فكرة السفر إلى منطقة أخرى وبحوزته كمية كبيرة من المجوهرات والنفائس، لكن مارك كان واثقاً منه بشدة وقد خيره بأن يذهب غداً بمفرده أو يذهب هو بمفرده وهو مريض، فلم يكن أمام صابر سوى الرضوخ مضطراً لرغبات مارك المدلل في مرضه، والحازم وقت قوته والمرن في مزاحه.

* * *

نبوءة اليهودي «يائير»..

خلال أسبوع كان أمامهم تجهيز الهدايا التي سوف يرسلونها للإمام في صنعاء وترتيبها بشكل أنيق؛ حيث إن الإمام المهدي محمد بن أحمد بن الحسن يعاني من بعض المشاكل السياسية وتمرد بعض أقاربه وعماله عليه ويرون أنه لا يصلح للإمامة بسبب تقشفه وفرضه للضرائب لذا كان السيد «فليتزر» حريصاً على إحياء شعور العظمة لدى الإمام وتعويض شعور النقص، فتعمد إكثار الصناديق واختيار الهدايا ذات الأحجام الكبيرة، فكانت أواني الخزف الضخمة وأقمشة الحرير ولفائف التبغ وزكائب الشاي السيلاني والقرنفل والأوراق وجميعها تم وضعها في صناديق خشبية أكبر من الحجم الطبيعي، وكانت هناك بعض المشغولات الذهبية والفضية التي تم جلبها من مناطق مختلفة من الشرق وكذلك أخشاب العود الفاخرة من جاوة التي تعتبر درة أعمال السيطرة الهولندية، لكن مارك اكتشف أن بعض الفضيات والمشغولات الذهبية تعاني من كسور صغيرة لذا فقد قام بتكليف صابر بمهمة إصلاحها لدى اليهودي يائير الذي يقيم في منطقة موزع القريبة من المدينة، أخذ صابر تلك الفضيات وذهب رفقة أحد عمال مارك يدعى العم صالح، وكانت الطريق إلى موزع منطقة رملية والمنازل المبنية من العشش تملأ الأماكن خارج أسوار المخا لكنها

تختفي رويدا رويدا كلما تم الاقتراب من منطقة موزع فتبدأ البيوت الحجرية الصغيرة بالظهور مع اختفاء الرمال وبدء السير في وادي موزع.. وبعد السؤال عن مكان اليهودي يائير دلوه على قرية صغيرة، وكان يعقوب يقيم في بناء حجري مصغر أقرب منه إلى نصف جدار ومكون من باب ودون نوافذ وكان يعقوب يجلس أمام هذا البناء وبين يديه حزام فضي يعمل به، وبعد تحيته طلب منه يائير ترك ما جلبه والعودة بعد يومين لكن صابراً رفض هذا الطلب وأصر أن يصلحها وهو موجود معه فقال له يائير:

- هل تخشى أن أفر بما جلبت لي؟! ألا تشاهد كل هذه الفضة والذهب في حوزتي؟ إنه ملك مسلمين من هذه المناطق وبعضهم جاء من مناطق بعيدة..

- لست أخشى منك، ولكني مكلف بعمل وأنا جديد في عملي وكل الأمر أني حريص عليه

- أنت ذكي يا فتى، سيكون لك شأن في المستقبل.

توقف عن العمل الذي كان يقوم به ونظر إلى صابر بعينين ثاقبتين وهو يقول:

- أنا أراك تطير عاليًا وتحلق بلا انقطاع..

تأمل صابر في ملامحه وهو يتحدث بينما كان هو يتذكر الأحلام التي رآها في منامه لكنه قال:

- المستقبل علمه عند الله وحده.

- نعم، معك حق وأنا مؤمن مثلك بالله ولست مثل الذين تعمل

لديهم يؤمنون بالتثليث.

- وما أدراك أني أعمل لدى نصارى

نظر إليه «يعقوب» نظرات ذات معنى وهو يتأمل في وجهه:

- (قال إنما أوتيته على علم عندي) أليس هذا مذكوراً بالقرآن على لسان قارون الذي هو من بني إسرائيل..

شعر «صابر» ببعض الخوف لكن «يعقوب» قال له وهو يعمل:

- أنت تعيش في الجبل..؟

- نعم منطقتي جبلية كيف عرفت هذا؟

- ملامح وجهك جبلية ومختلفة عن سكان هذه المناطق من أين؟!

- من يافع.

- سرو حمير.. هل كنت تعلم أن ديانة مملكة حمير هي اليهودية؟!

- نعم..

- قصة الأخدود موجودة في القرآن عن ملك حمير ذي نواس الذي عذب النصارى بسبب دينهم فأحرقهم بالأخدود في نجران.

- نعم، أعلم هذا..

- الأديان كلها من الله، لا يوجد دين بشري ولا يستطيع البشر أن يصنع ديناً، كل الذي يستطيعه هو تغيير وتشويه الدين فقط: إما بجهله أو متعمدّا..

- متى ستذهب إلى الإمام؟!

نظر إليه صابر نظرات استغراب ثم قال له محتداً:

- لم أخبرك أني سأذهب إلى هناك، هل أنت ساحر؟

- ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ هذا ما يقوله الله في القرآن، وأنا رجل مسن عرفت أن هذه الفضة والذهب جزء من مجموعات متكاملة فهذا العقد له حزام يكمل به الصورة المنقوشة به وهذه الأقراط تمثل الشمس والقمر وتحتاج إلى عقد يمثل الأرض، ولو كنت ساحرا لأنقذت نفسي وقومي مما حدث بنا من تهجير في صنعاء ونفينا إلى هذا الوادي..
- هل كنت تقيم في صنعاء؟

- نحن من سكانها كابراً عن كابر وجيلاً جيلاً، حتى حلت الكارثة
- ماذا حدث؟!

كان «يائير» يتحدث بلا انقطاع وكأنه مخلوق من أجل الكلام وربما يكون وسيلة للتنفيس عما يعانيه من كبت وانقطاع، أو ربما دلالة على أنه صاحب مكانة كبيرة فيما مضى وفقد كل شيء، فالكلام لديه هو وسيلة للحديث والترويح عن نفسه وإثبات مكانته من خلال التلاعب بمن يتحدث معه وتخويفه. بينما كان صابر يتأمل في ملامحه التي لاتختلف عن سائر أبناء اليمن باستثناء قبعته الصغيرة وزنانيره التي تتدلى على جانبي رأسه النحيل كان صوت يائير يتحدر بلا انقطاع:

- القصة طويلة ومؤلمة يا ولدي وتسبب لي حزناً شديدًا لكنني سأحكيها لك بعد الغداء وبعد أن تصلي أنت فرض الظهر.

أخذ «صابر» ينظر إليه باستغراب ودهشة مع خليط من الشفقة والحزن وهو يراه يعمل دون انقطاع رغم حديثه المتواصل وثرثرته التي لا

تنتهي لكنه وجدها فرصة لتمضية الوقت، فيومان في هذا الوادي لهما طويلان بالقدر الذي يخيل إليه أنهما لا ينتهيان، لذا فقد طلب من العم صالح أن يعود إلى المخا لإخبار مارك ببقائه يومًا آخرَ على أن يعود غداً عند العصر لاصطحابه بالإياب.

بعد صلاة الظهر طلب يائير تناول غدائه، أما صابر فقد تناول بعض الخبز الذي كان معه ثم استأذنه يائير بأخذ قيلولة قصيرة فانتحى هو جانباً تحت ظل شجرة ولم يفق إلا على صوت اليهودي يائير وهو يعمل. ما إن أدرك استفاقة صابر حتى بادره قائلًا:

- هل أفقت أيها الكسول؟!

ولم يكن ينتظر جواباً من «صابر» فواصل حديثه قائلاً:

- تعالَ لأحكي لك عن سبب تشريدنا ومعاناتنا، دون سبب سوى أننا آمنا بالله قبل الجميع لهذا فالجميع يضطهدنا ويحاربنا سواءً كانوا نصارى أو مسلمين

- بغض النظر عن كلامك، ماذا حدث لكم؟

- الكلام يجر بعضه وسوف نأتي على هذا، فقبل اثنين وثلاثين عامًا وكان في العام 5427 من السنة العبرية وهي تعادل عام 1077 بالتقويم الهجري كان يحكم صنعاء الإمام المتوكل على الله إسماعيل إمام اليمن

- هل لديكم تقويم عبري خاص؟!

- نعم، فإذا كان تقويمكم بالشهور القمرية وتقويم النصارى بالشهور الشمسية فتقويمنا يعتمد على الشمسية والقمرية ولدينا حسابات

متعددة للتوفيق بينها، لاداعي لإشغال عقلك بها.

- في الحقيقة لا أريد التعمق في الأمر يكفيني إشغال عقلي بالمقارنة مع التقويم الميلادي في كل مرة أتحدث بها مع مارك

- مارك هذا الذي تعمل معه؟!

- نعم هو..

- لا تقلق تقويمنا خاص بنا ولا يعني غيرنا مطلقاً. المهم سأكمل القصة لكي تعرف مأساتنا: «جاء شخص غريب من تركيا وبدأ يجتمع مع بعض اليهود بعد فتنة «شيبتاي زيفي» في الأناضول.. »

- من هو هذا شيبتاي زيفي؟!

- هو يهودي حاول إدعاء النبوة قبل أربعين عاماً، ولكن اليهود وأحبارهم في الديار التركية وقفوا ضده وحرضوا الخليفة عليه وأمسكوا به في نفس العام الذي حدثت به الفتنة في «صنعاء».

- لماذا وقف أحبار اليهود ضده؟!

- بسبب الفتنة وإفساد الديانة اليهودية وما يسبب هذا من تحريض ضد اليهود ونحن متواجدون في ديار المسلمين بأمن وأمان وليس كما نسمع عن قصص التهجير والقتل ومحاكم التفتيش في أوروبا النصرانية، المهم.. بعض اليهود في صنعاء صدقوا هذا الرسول وبدأوا بالتحريض على بيع الممتلكات لكن أغلبنا لم يصدقه ولم يتبعه، وبالأخير كشف الإمام المتوكل الأمر وقام بإعدام شخص اسمه سليمان الأقطع كان يتزعم الفتنة وسميت الفتنة باسمه وكذلك النقاش عيلوم اليهودي في صنعاء الذي تم

نفيه إلى هنا في موزع معنا.

سأله صابر:

- هل هذا سبب تهجيركم؟!

- في الحقيقة لا، ولم يكن التهجير في ذلك الوقت بل بعده بعشر سنوات ولكن بعد تلك الفتنة تم التضييق علينا وأخذنا كلنا بجريرة أهل الفتنة وقام أحد المسلمين بعد اختلافه مع يهودي بالصراخ والاستنجاد بأهل صنعاء والادعاء بأن الإمام أمر بنهب أموالنا وبيوتنا فهجم المسلمون على بيوتنا ومحالنا وامتدت الفتنة إلى ثلا وعمران ولكن الإمام أوقفها وهناك من يقول بأنه وراء هذا لكنه لم يكن يريد القيام بمجزرة فاتخذ هذا الأسلوب لتأديبنا، رغم أنه منعنا من إرتداء العمائم والجنابي وإلغاء عهد الذمة بين اليهود والأئمة وتحويلنا إلى عبيد..

فوجيء «صابر» في تلك اللحظة بوصول العم صالح وكان الموعد في اليوم التالي بعد الظهر، وحين سأله عن سبب مجيئه أخبره بأن مارك طلب منه العودة والبقاء معه، وأحضر معه بعضاً من الخبز ما يكفي حتى عودتهما في اليوم التالي وكذلك بعضاً من اللحم للعشاء، حينها قال يعقوب ممازحاً صابر:

- يبدو أنك عزيز جدا لديه، إنه صديق جيد لا تتركه وسوف يجعلك سيد المخا يوماً ما..

- هل هذه نبوءة؟!

- لا، يا ولدي إنما أنا صيَّاغ مسكين ولكني رأيت في وجهك هذا.

- يبدو أنك تخفي الكثير خلف مهنتك هذه!

- لا أخفي شيئا ولكن الدنيا علمتنا أن نخفض رؤوسنا حتى لا تطير، ونحن أقلية نعيش في مجتمعات إذا غضبت استحضرت الدين كما حصل لإخوتنا في أوروبا وأواسط آسيا وفي كل مكان.

كان صابر يخشى أن يتشعب الحديث معه ويحكي له قصصًا أخرى فقال له بحزم:

- ربما.. أكمل قصتك.

بدأ «يعقوب» قصته بكلمته التي يبدأ بها كلامه فقال:

- المهم.. هدأت الفتنة الأولى واستقر الوضع حتى مات الإمام المتوكل فخلفه ابن أخيه الإمام المهدي «أحمد بن الحسن» وهو والد الإمام الحالي المهدي محمد المعروف بصاحب المواهب.

- ماهي مواهبه؟!

ضحك يائير بصوت عالٍ وهو يقول:

- لا يا ولدي سمي بهذا لأنه اختار السكن في قصر المواهب في ذمار بسبب الفتن والمشاكل وتمرد الكثير من الهاشميين ضده أبناء عمومته وظل يتنقل بين أكثر من مدينة بناها حتى استقر في المواهب قبل شهور قليلة، ستراها بنفسك قريباً.

لم يعد صابر يأبه كثيراً بمقاطعته لكنه كان متحمساً لسماع باقي القصة فاكتفى بهز رأسه ليستطرد يائير:

- المهم.. كان الإمام أحمد بن الحسن يفتقر للعلم والفقه وحاول

تعويض هذا باختلاق فتنة من لا شيء فقرر نفي اليهود من صنعاء وحاول علماء صنعاء ومشائخها أن يثنوه عن هذا فكان يتعلل بحديث النبي محمد الذي يحث به على إخراج اليهود من جزيرة العرب، وكان علماء المسلمين في صنعاء مختلفين فمنهم من وافق الإمام ومن اعترض من باب أن النبي محمد قصد الحجاز وليس عموم الجزيرة فأطلق على البعض لفظ الكل ورفض الإمام التراجع لأن هذا يعني تصديق الكلام بتواضع علمه وإخلاله بشروط الإمامة، التي منها التفقه في الدين، فأمر صاحب صنعاء وهو محمد بن المتوكل حاكمها نيابة عن الإمام بنفي اليهود بدعوى الغش في العملة فخربت كل الكنائس في صنعاء و في البون بالقرب من ريدة وحتى في إب. وكان لنا كنيس قديم في صنعاء يعود إلى ما قبل الإسلام حولوه لمسجد، رغم أن الصحابي (وبر بن يحنس) نزل بقربه ولم يمسه بسوء وهو مرسل من النبي محمد في يثرب، وأصبحت دورنا خرائباً وأطلالاً، وأسماها أهل صنعاء بالخرائب وبعضهم أسماها الجلاء وأصبح كنيسنا يسمى مسجد الجلاء

- متى كان هذا؟

- مازلت أتذكر هذا بالتاريخ والشهر كان في شعبان من عام 1088 للهجرة

- أي قبل 22 عاماً، بعد عشر سنوات من فتنة سليمان الأقطع..

- نعم، فهي ليس لها علاقة ولكن الإمام أراد تعويض النقص الذي يعاني منه والفِتنِ التي يواجهها فلم يجد سوى اليهود.

- أتفهم الآن ألمك وحزنك!

- نعم يا ولدي هكذا تم تهجيرنا إلى هنا، وتركنا بيوتنا وأموالنا وأعمارنا التي عشناها بحلوها ومرها وجيراننا حتى من المسلمين، ومات في طريقنا للخروج الكثير منا وبعض اليهود فضل الهجرة لمناطق أخرى فتفرقنا في عموم اليمن بعد أن كنا نعيش معاً.

- هل تعيشون كلكم هنا، لا أرى سوى بيوت متفرقة في الوادي؟

- لا يا ولدي، بعد عامين من التهجير تراجع الإمام «المهدي أحمد» عن الفتوى بتهجيرنا بعد أن توسط لنا الحاخام شالوم الشبزي

- نعم، سمعت عنه، هل كان معكم من المهجرين؟!

- لا. إنه يعيش في جبل صبر المطل على تعز ويحظى بمكانة كبيرة عند المسلمين ومازال حيا وله مكانة كبيرة، وحتى المسلمون يجلونه ويوسطونه بينهم لحل المشاكل وهو في الثمانين من عمره أطال الرب في عمره..

- كيف يفتي الإمام بتهجير اليهود ثم يقبل وساطة يهودي؟!

- هذا من التناقض وقلة العقل والشعور بالنقص وتعويض الفشل والهزائم، ورفض الهاشميين بسبب قلة علمه وأنه غير مؤهل للإمامة وفق شروط الإمامة في المذهب الزيدي فيدعي الورع والتقوى ويتشجع علينا نحن اليهود، ويفتخر أنه تكفل بحمايتنا ونحن في طريق النفي حتى لا تقتلنا القبائل. وضع الفتوى بتهجيرنا ثم أوجد السبب بعدها ثم يقبل بوساطة حاخام منا.

- هل عدتم؟

- عاد الكثير منا ولكنه رفض إعادتنا إلى بيوتنا بعد أن وزعها على

القبائل، واختار لنا منطقة تسمى الحقل أو القاع خارج صنعاء وكأننا مصابون بالجذام، أو مجرمون، وصار الناس يسمونها قاع اليهود، فلم أطق الحياة هناك وسط الخوف والتهديد وظلم القبائل فعدت إلى هنا، حيث الناس هنا بسطاء وأكثر تسامحًا.

- أخبرتني أن الإمام الحالي هو والد الإمام الذي هجركم؟

- نعم واسمه المهدي أيضا محمد بن أحمد بن الحسن

- هل هو كأبيه؟!

- مختلف عن أبيه تماماً هو قوي لدرجة القسوة بحكم مشاركته بالحروب والقتال منذ شبابه ووصل الجيش في عهده وعهد والده وجده عّم والده لمعظم مناطق اليمن وهو يحاول فرض السلطة، وربما يكون أفضل من حكم منذ خروج الترك، لولا أن سنه كبير فهو كهل في السبعين - سمعت أن علاقته قوية مع الأوروبيين.

- أجل لأنه سياسي ويفكر بمصلحته.. لولا الفوضى والاضطرابات وتمرد الكثير من الهاشميين عليه في مناطق مختلفة.

- لا زلت غير مقتنع بأنك مجرد صياغ يهودي!

- وماذا أفعل لك لكي تصدقني، حالي يكشف لك كل شيء.

لم يشأ صابر الدخول معه في جدل عقيم؛ لذا فقد قال له متذمراً:

- لا شيء، فقط انجز عملك بسرعة فالعم صالح يخشى من الناموس. كان العم صالح يجلس تحت شجرة سدر واسعة حينذاك يستمع للحديث بصمت، فكل ما يجري في العالم لا يهمه، فالمهم لديه

أجرته الشهرية التي يرسلها لأهله في وادي سهام، ولهذا فقد استوى في جلوسه حينما سمع اسمه وقال بلهجته التهامية البسيطة ممازحًا إياهم:

- أنا والناموس نعيش قصة عشق أبدية، لم أعش خارج تهامة ولم أخرج عن نطاقها طوال حياتي ولو ليوم واحد، ولهذا عقدت صفقة مع الناموس بأن يأخذ ما يريد ويتركني فلست إمامًا أقوم بتهجيره ولا هو يهودي مستضعف.

أخذوا يضحكون على كلام العم صالح الذي كان كما يبدو يستمع لأحاديثهم بصمت البسطاء وذكائهم.

بعد أن أنجز مهمته الأولى وحيداً بذهابه إلى موزع كان «مارك» سعيداً بهذا وفخوراً أمام السيد «فليتزر» الذي أعطى صابرًا يوماً للراحة. وفي صباح اليوم التالي فوجئ صابر بمجموعة من جنود الحاكم يأتون للبحث عنه في المنزل وقاموا باصطحابه للسجن دون أن يعلم سبب ذلك وسط ذهول مارك واستغرابه الذي رافقه إلى باب السجن. ولم يكن الجنود يعلمون سبب ذلك، فلم يكن أمام مارك سوى الذهاب إلى الحاكم للاستفسار منه عن سبب سجن صابر. وقد فوجئ مارك حين علم أن صابر متهم بقتل صديقه عبدالله الذي وجد مقتولاً عند سور المدينة الخارجي. وقد حاول مارك عبثاً إقناع الحاكم ببراءة صابر، ساردًا له مواقفه الكريمة مع عبدالله؛ لكن الحاكم أخبره بأن هناك من شهد بأن صابر وعبدالله قد اختلفا بعد اتهام الأخير له بارتداده وخروجه عن

الإسلام وهذا قد يكون دافعًا لقتله خصوصًا بأنهما من منطقة واحدة. وقد حاول مارك إقناعه بالإفراج عنه وأنه سيتكفل بإحضاره في أي وقت لكن الحاكم رفض طلبه هذا، مع تعهده بعدم التعرض له بأي سوء أثناء حبسه إكرامًا لدور مارك في القبض على جواسيس المحطوري الذين اعترفوا بعد تعذيبهم في السجن بكل ما نسب إليهم والكثير من المؤامرات التي تم إرسالها إلى الإمام المهدي في مقر حكمه الجديد بالمواهب، فلم يكن أمام مارك إلا العودة للسجن حيث يقبع صابر هناك ليجد الشيخ طه الذي عرف بالخبر. وكانت المرة الأولى التي يتحدث بها مارك مع الشيخ طه رغم أنهما يعرفان بعضهما بعضاً في شوارع المدينة.

أخذ الحزن والاكتئاب يأكلان من صدر صابر وهو لا يدري مايفعل خصوصاً حينما سمع أصوات صراخ وتعذيب في حجرة مجاورة، عرف بعدها أنه تم القبض على شخصين من جماعة مايسمى بالمهمشين بتهمة القتل أيضا. ورغم أن مارك طمأنه بأن الحاكم قد وعده بعدم التعرض له إلا أنه لم يستطع التخلص من مشاعر القلق والخوف، حتى مع نصائح الشيخ وهو يحدثه عن الاطمئنان والاستغفار كما قال سيدنا أبي الحسن الشاذلي: (من أحصن الحصون من وقوع البلاء على المعاصي والاستغفارِ، قال الله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾، والصادقُ الموقنُ لو كذبه أهلُ الأرضِ لم يزدْ بذلك إلَّا تمكيناً. وكل الناس معرضون لأن يسجنوا ظلماً أو قصاصاً وما أنبياء الله والصالحون سوى نماذج واضحة لذلك ولم يعقبها سوى الفرج والانتصار. أما مارك فقد أخبره بأن عليه الصبر وانتظار ما ستسفر عنه نتائج المتهمين

الآخرين وعلى ضوئها سيتحرك. ووعده بأنه لن يتركه مذكراً إياه بما دار بينهما في المرة السابقة حينما سجنا وكيف أنه تعرض للسجن عشرات المرات وأن السجن مجرد مرحلة تمضي وإن طالت. لم يكن صابر شاعراً بالتفاؤل في وضعه وهو يقبع في حبس ضيق بلا نوافذ سوى فتحتين صغيرتين يدخل منهما بعض الضوء وهو يسمع أصوات التعذيب بالجوار والجنود يطلبون الاعتراف أكثر من طلبهم معرفة الحقيقة. ورغم أن التوصية كانت شديدة من قبل الحاكم بعدم التعرض له، خصوصاً بعد زيارة الشيخ طه للحاكم أيضاً إلا أن الجنود لم يكونوا يفقهون إلا لغتهم القاسية التي يرون أنها تمنحهم الهيبة والمكانة. أخذ يقرأ القرآن بلا توقف. وكان صابر قد تحدث في الحبس الأول مع مارك عن متعة التجربة الأولى لكنه اليوم أدرك أن التجارب السيئة تصبح وبالًا على صاحبها مع الاستمرار، وبعد زوال المتعة يبقى الألم، وأخذ يردد أبياتًا من قصيدة عفيف الدين اليافعي(*):

«لعاص فقير يافعي يماني
لمداحكم يا سيد الرسل خادم
أغِث وأجر واشفع له ولعشرة

(*) عفيف الدين أبي السعادات أبي محمد بن عبدالله بن أسعد بن علي بن فلاح اليافعي، قطب الحرم المكي ونزيل الحرمين..ولد في عدن 1298م وتوفي في مكة 1367م، تنسب إليه السلطنة العفيفية في يافع التي تأسست في العصر الذي تدور فيه أحداث الرواية لمقاومة الأئمة عام 1655م.

مضى ذكرهم في نظمه المتقادم
فاصل واصل ثم شيخ وأهله
وصهر وذي الأرحام أهل التراحم
وخل وقارئ كتبه ثم سامع
وجار فكم حق على الجار لازم
فأنت الذي لا شك تحت لوائه
غدا آدم يمشي فمن دون آدم
عليك صلاة الله ثم سلامه
يصوغان نشراً محيياً كل شامم
وآلك أهل الفضل والفخر والعلى
وأصحابك الزهر النجوم النواجم
وأزواجك الغر القوانت في الدجى
ذوات الصلاح القانتات الصوائم
وسبحان من ذاتٍ ووصفٍ مقدس
وأشرف مبد وذكر وخاتم.. »

مضت أيام طويلة دون أن يتغير من الأمر شيء، وبدأ حزنه على فراق صديقه يزيد بعد أن منعت الصدمة أن يخلو إلى نفسه بهدوء حتى يفيض الحزن الذي في داخله كما هو اليوم بعد مرور خمسة أيام، وتذكر أنه حتى لم يصلَّ عليه صلاة الميت. أخذت دموعه تسح بلا توقف على صفحة خديه وكأنها تغسله من همومه، وتذكر أن عمه لم يزره حتى اللحظة وأخذ

يتساءل بينه وبين نفسه: هل يكون عمه هو القاتل أو يكون هو من وشى به في موضوع الخلاف الذي حدث بينهما ومن يكون القاتل وماهي أسباب القتل؟ فعبدالله كان شابًا لا يملك أية خلافات تستحق القتل حيث كان خاليًا من طمع الأموال ورغبة التنافس والسيادة.

فوجئ في اليوم الرابع بدخول عمه عليه في الحبس وكان يظن أنه جاء لزيارته في بادئ الأمر لكنه صدم حينما وجده مصاباً بكدمات كثيرة في وجهه وأنحاء متفرقة من جسمه. وكانت المفاجأة أكبر حينما علم منه بأنها نتاج التعذيب جراء اتهامه بقتل عبدالله، حيث وشى به أحدهم لدى الحاكم بقصة طرده لعبدالله وضربه له أمام الناس.. كان عمه يبكي بكاءً مرًا كأنه امرأة فقدت وليدها الوحيد. وكانت هي المرة الأولى التي يرى بها صابر رجلاً يبكي. وكانت كرشه تهتز مع الماء وعمامته الصفراء تتدلى على كتفيه وقد ابتلت بالكثير من الدماء التي تسيل من أنحاء متفرقة من جسده، لكن صابر أظهر برودا عجيباً وهو يتعامل مع عمه، ولم يكن يتحدث إليه إلا في حالة الرد على أسئلة عمه الذي أظهر حقده وسواد قلبه وهو يصرخ في وجه الجنود - عند كل مرة يأخذونه للتحقيق أو يضربونه - عن عدم ضرب صابرفي كل مرة يسمع فيها الجنود بأنها أوامر الحاكم، فيأخذ بالصراخ والبكاء. وفي الحقيقة كان يتم تعذيب عمه في حجرة مجاورة وباقي المتهمين مرتين في اليوم الأولى في الصباح بضربه بالسياط مع مطالبته بالاعتراف والثانية في المساء كانت بتعليقه بالحبال من قدميه ورأسه بالأسفل لمدة ساعة أو ساعتين، حتى يفقد وعيه في مرات كثيرة فيسحبونه إلى الزنزانة فيظل هكذا إلى اليوم التالي عندما

يأتون لمواصلة التعذيب. وعلى الرغم من أن صابراً يمتلك حصانة من نوع كبير إلا أن الخوف كان كبيراً وهو يدعو الله بأن يعثروا على القاتل. وكان- رغم كل هذا- يذهب إلى عمه ويحاول إطعامه ومواساته - رغم أنه بحاجة إلى المواساة ومن عمه الذي كان يفترض أن يكون والده ومعينه - وبينما كان عمه نائماً على أرضية الحجرة وقد التحف بعمامته الصفراء بجانب الجدار الذي تقع به الكوة، تذكر صابر الأحلام التي كانت تأتيه ومحاولة الغراب الأصفر جره من قدميه للإبقاء، عليه فداخله الخوف والهلع خشية أن ينجح عمه بمساعيه الدنيئة.

وفي اليوم السادس أتى الشيخ طه ومارك لزيارته وهما يزفان إليه نبأ إخلاء سبيله بعد اعتراف المتهمين بقتل عبدالله بعد تعذيبهما. وعلى الرغم من سعادته بخروجه إلا أنه حزنه كان مضاعفاً بسبب تعذيب المتهمين طوال الأيام الماضية، ولولا لطف الله بأن سخر له من يحميه لما تحمل ذلك التعذيب الذي كان يسمع تفاصيله ثم حزنه على رحيل صديقه ومواقف عمه الغريبة التي لا يمكن أن تصدر من شخص متزن واعٍ، ثم أخيرًا حزنه على نفسه وهوانه، وكيف يمكن أن يتغير مصيره بسبب وشاية حاقد أو ظن جاحد. لكنه حمد الله على وجود الشيخ طه ومارك في حياته وكأن الله يخبره أن الحياة تحتاج إلى دين وعلم وفهم متجسدة في شخص الشيخ طه وتحتاج إلى عمل وخبرة وقدرة، كما هو مارك. لذا فقد قرر منذ ذلك اليوم أن يسعى لأن يكون مزيجًا من الاثنين في شخص واحد وكأن تلك الستة الأيام كانت دورة مكثفة في تنمية قدراته وملكاته ورباطة جأشه وبقائه قويًا لكنها بطبيعة الحال لا تخلو من الألم.

ولأن نية التغير موجودة كان لابد من الخطوة الأولى حتى يصبح التغيير نافذاً. فلولا الفعل ماكان التغيير. وكانت الخطوة الأولى هي التعامل مع عمه بطريقة مختلفة يجيدها عمه؛ لأن الصبر على أمثاله ضعف وقلة حيلة ومنحه الأداة التي يقتله بها ألف مرة، والصراع مع اللئيم لؤم وتركه هوان. وبينهما تكمن الحيلة ونقطة السر في التعامل معه وإخافته، فلا شيء يجدي مع اللئيم أكثر من إخافته بشكل دائم مع تبيان مدى القوة له حتى يستشعر خوفه ويدركه، لكن صابراً لم يكن يعلم من هو الذي وشى بعمه لدى الحاكم وتسبب بالقبض عليه، لذا كان على صابر أن ينهي الأمور مع عمه ومواجهته، فقرر ألا يرتاح وأن يذهب إلى العمل لعدم أيام وبذل كل مجهوده به حتى ينسى ما حدث له في الأسبوع الأخير الذي ظن أنه لن ينتهي بل سيدور حتى الأبد. وبعد ثلاثة أيام قرر الذهاب إلى عمه لإنهاء كل الأمور معه بشكل كامل.

ومع وجود وقت فراغ كبير قبل الاستعداد للموسم الثاني واستقبال السفينة التالية خرج مارك وصابر رفقة مزنة وروجا إلى الساحل خارج المخا كي يتدرب صابر على استخدام المسدسات والبنادق، وكان الأمر شاقاً بالنسبة إلى صابر الذي كان يرى البنادق لأول مرة في المخا.

أخذ مارك يشرح لصابر بطريقة نظرية كيف تتم عملية إطلاق النار التي تحتاج إلى خمسة عناصر أساسية لإطلاق النار بالبندقية هي التصويب، والتحكم في التنفس، التحكم في الحركة، والتحكم في الزناد، والمتابعة. تعمل كل هذه العناصر معًا كعملية واحدة ويجب ممارستها معًا بهذه الطريقة. ثم أخذ يشرح له الفرق بين المسدس والبندقية ومتى يجب

استخدام كل منهما وقبل التدريب على إطلاق النار أخذ مارك يدربه على مهارات ماقبل عملية الإطلاق فالأهم هو سرعة إخراج المسدس أو البندقية وتجهيزها وإطلاق النار وهو مابذل فيه مارك مجهودًا كبيرًا في توضيحه وتدريبه لصابر. أخبره بأن حياته تعتمد على سرعة إخراج سلاحه، ثم جاءت الخطوة التالية وهي في مهارة تحديد الهدف والتعود على ذلك، فبدأ بتدريبه دون سلاح من خلال تشكيل مثلث بأصابع يديه قاعدته إبهامي يديه وزاوية ضلعيه هي نقطة التقاء سبابتيه في الأعلى فيكون الهدف داخل المثلث ثم تقريب المثلث إلى عينيه بحيث تتعود عينا صابر على طريقة التقاط الهدف وحصره عن كل مايحيط به بسهولة ومراقبة سلوك الهدف إن كان متحركًا، مع توقع الحركة التالية قبل الإطلاق مباشرة. وبعد مرات عديدة أخذ يشرح له طريقة الإطلاق بثبيت كعب البندقية أو تثبيت الذراع في حالة المسدس ثم تنظيم التنفس. كما شرح له على ظهر السفينة كيف يقوم البحارة بتنظيم عملية إطلاق القذائف من المدافع وسط تلاعب الأمواج فيكون الإطلاق بين الزفير والشهيق مع إيقاف التنفس حتى انطلاق القذيفة وتثبيت النظر على الهدف، ثم تقليل وقت الإطلاق فلا يمكن أن يبقى لفترة طويلة في وضع الاستعداد؛ لأن كتم الأنفاس لفترة طويلة يؤدي إلى ازدياد ضربات القلب وبالتالي تحرك الجسم ولو بمقدار ضئيل. وطريقة تثبيت البندقية أو المسدس بقوة مع مقدار ضئيل من المرونة يسمح بامتصاص صدمة الارتداد ثم التوازن قبل الإطلاق التالي. وقد أظهر صابر مع مرور الوقت وتكرار التدريبات قدرة فائقة على التنفيذ، ساعده في هذا وجود أستاذ

متمكن كمارك وسن صابر الصغير القابل للتعلم والتطوير.

كانت الخطوة التالية لمارك تجاه صابر هي استخدام علاقاته الجيدة مع بعض التجارة وثقتهم به وكذلك مع البانيان في أن يقوم بجلب البن والحصول على أسعار جيدة وبيعها للشركة شريطة أن يكون السعر أقل من سعر البن في الأسواق، وكان هدف مارك هو تحويل صابر إلى تاجر بن كبير، فقد كان مارك يخشى أن تقوم الشركة بنقله إلى فرع آخر وبالتالي فلن يستمر صابر في عمله بالشركة، فكان يريد تقوية صابر وتمكينه. وافق صابر بعد تردد كبير؛ حيث كان يعتبرها سرقة وخيانة للأمانة، لكن مارك أقنعه بأنه طالما كان السعر أقل من سعر السوق فلا توجد سرقة ولا توجد خيانة للأمانة لأن مارك والسيد «فليتزر» يعلمان بذلك، وكل مافي الأمر أنهم يريدون تعويض قلة المحصول في الموسم الماضي واستغلال وفرة الانتاج وتحسن الإنتاج من خلال تنويع المصادر وطرق الحصول على البن، وصابر لم يكن الوحيد الذي يستخدمون معه هذا الأسلوب، شريطة ألا يخل هذا بعمله رفقة مارك في الشركة. وقد بدأ صابر بسرعة تواصله مع السماسرة من البانيان الذين كان يعرفهم سابقاً وعلى رأسهم «سوراجي» حيث طلب منه صابر التواصل مع من يعرف في أسواق بيت الفقيه والحدية وعلوجة والصلبة وصنعاء وذمار مغريا إياهم بوجود مشترٍ دائم وأن الأولوية بالشراء لمن باع في المرة السابقة، ثم استخدم علاقته الجيدة مع الحاج أيوب لكي يشتري منه ما بحوزته من كميات البن بأسعار جيدة، وكان يؤمل أن يكون عمه من ضمن التجار الذين يتعامل معهم، لكنه كان يعلم حقد عمه وجشعه الذي سيفضل عدم بيع مالديه على أن يستفيد

صابر. إذاً فقد اهتدى إلى فكرة سيحاول أن ينفذها مع عمه مباشرة. بعد أن التقت رغبة صابر بمواجهة عمه بفكرة مارك بتحويله إلى تاجر بن، قرر صابر عدم تضييع الوقت. وعند مروره على حانوت عمه وجَدَه مقفلًا، وهذا متوقع نظراً لحالته بعد تعرضه لتعذيب شديد، فذهب إليه في منزله حيث وجده ملقى على سرير من الخوص وحبال النخيل المفتولة، وهو يئن بشدة والجروح تملأ كل أنحاء جسده السمين، وجاريته تأتي له بالماء وتحاول إطعامه دون جدوى.

عندما رأى صابرًا، أخذ بالصراخ بصوت واهن وهو يطلب منه الخروج فوراً، وأنه لا يريد أن يرى نظرات التشفي في عينيه فقال له صابر بهدوء:

- أتيت حتى أراك أولًا، ثم أريد أن ننهي كل المشاكل بيننا. فليس من المجدي أن تستمر بمحاربتي بهذا الشكل الفظيع، وقد آن الأوان لتعلم أن كل ماتفعله بحقي يعود عليك بالدرجة الأولى.

عندما وصل إلى هذه النقطة كان عمه يهمهم بكلمات غير مفهومة مرهقة من آثار الآلام والصراخ السابق، إلا أن صابراً واصل حديثه قائلاً:

- أعلم بأنك تظن بأني وراء إبلاغ الحاكم بمسؤوليتك عن قتل عبدالله.. عبدالله صديقي وعشرة عمري الذي حرمت منه وحرمت حتى من صلاة الجنازة ورؤيته الأخيرة، لكنك مخطئ..

نهض حينها صابر وهو مستمر بالحديث وسط تأوهات عمه الذي ينظر إليه بعين واحدة بينما العين الثانية مختفية من آثار ضرب السياط

التي وصلت إلى وجهه وسببت له جروحاً وتورمات مختلفة، فقال:

- أنت مخطئ، كالعادة بحقي. من حقك ألا تجعلني أعمل معك، وكلنا نعرف الأسباب في رغبتك الجشعة بألا تراني أفضل من أبنائك، ومخطئ في محاربتي في عملي رغم أني كنت أعمل على حمار بأجر زهيد وبلا منزل، ومخطئ في ظنك بأني وراء اتهامك بقتل عبدالله، لأنك أولاً لست قاتله، فأنت أصغر من أن تقتل شخصًا وكل ما تفعله هو صنع الدسائس ونشر الشائعات كشائعة ارتدادي عن الإسلام.

رفع عمه رأسه بصعوبة باتجاهه وقد تناسى تأوهاته للحظات بينما واصل هو كلامه قائلاً:

- لو كنت أريد توريطك بجريمة، لكنت أخبرت الحاكم عن علاقتك بجواسيس المحطوري الذين أرسلهم..

بدت ملامح غضب مخفية وراء الكدمات والجروح في وجه عمه وهو ينفخ تأوهات مكتومة، فابتسم صابر ابتسامة ساخرة بطرف فمه وهو يقول:

- ربما لم تكن تعلم أنهم يتبعون المحطوري، لكنك ساعدتهم وآويتهم في المبنى الآخر الذي تملكه هنا، أو الذي تستأجره في بيت الفقيه، أليس كذلك..؟

انتظر صابر بضع لحظات وهو يرى عمه شبه مستسلم وقد أنزل عينه السليمة بما يشبه الخجل قبل أن يقول:

- ولعلمك مارك لم يخبرني بشيء، مارك الذي حاول أن يصلح العلاقة

بيننا من خلال العمل ويجعلنا نتعاون مع بعض مستغلاً جشعك وحبك للمال. هناك شخص وشى بك وربما يكون ممن أعرفهم بغرض مساعدتي، وربما يكون من أحد منافسيك من جيران حانوتك الذين شاهدوك وأنت تضرب عبدالله وتطرده يوم ورطك مع جنود الحاكم.

استدار حينها صابر خارجاً من باب الغرفة التي تقف جارية عمه عند مدخله فتركت له مجالاً للعبور، وعندما وصل إلى الباب التفت إلى عمه وقال:

- علينا أن نفتح صفحة جديدة معا، وأن نعمل معا لكن بشروط مختلفة، كل بضاعة أشتريها منك لي نسبة منها، وأن تتوقف عن مؤامراتك ودسائسك لأن مجيئي إلى هنا هو آخر فرصة للتفاهم، ثم عليك أن ترسل من يخبر أهل عبدالله عن مقتله مع مبلغ متساوٍ من المال منك بحق ماعمل لديك، ومني بحق الأخوة والصداقة وعشرة السنوات الطويلة.

خَطَا صابر منصرفاً إلى خارج الغرفة وهو يقول بصوت عالٍ:

- إذا كنت تريد فتح صفحة جديدة بيننا سأنتظر أي شخص من طرفك في أي وقت تخبرني بذلك. اتركوا لي خبرا مع أهل البيت إن لم تجدني، وإذا احتجت إلى شيء في مرض أرسل في طلبي وستجدني..

غادر صابر بسرعة دون أن يلمح دموع عمه التي نزلت حتى من عينه المتورمة، كانت دموع ندم وانكسار وحقد ربما، لن ينتهي بسهولة، أما صابر فقد وطن نفسه على توقع الأسوأ وأن الحقد لا ينتهي من قلب صاحبه مهما تغيرت الظروف وتبدلت الأحوال. فصاحب الحقد- مثل عمه-

مريض به يولد من غيره ويموت به، وقد يورث للأبناء بحقد مضاعف متراكب يتضاعف مع مرور السنوات والأجيال.

ومع نهاية شوال كانوا على أحداث سعيدة وأخبار سارة، حيث بلغهم أن الحاكم قام بالقبض على جنديين من جنوده بعد خلاف حدث بينهما فقام كل منهما بفضح الآخر أمام باقي الجنود بدوره في قتل عبدالله بعد خلاف حول فتاة من المهمشات. وبعد القبض عليهما أقرا واعترفا بجريمتهما. فتجدد لصابر حزنه على صديقه، كما أنه تذكر تعذيب الجنود للمهمشين اللذين اعترفا بقتل عبدالله جراء التعذيب. لكن عدالة الله تحققت في الأخير وآن لصديقه أن يرتاح في مأواه الأخير. كما تواردت الأخبار السعيدة بخبر مقتل إبراهيم المحطوري وانتهاء فتنته التي طالت وتشعبت من رجب، وعطل الكثير من الأعمال وأوقف الكثير من الخطط التي كانوا بصدد تنفيذها، منها زيارتهم إلى الإمام المهدي في قصر المواهب، وقد بلغهم أن الضحايا بفتنته من اليمنيين والهنود واليهود قد بلغ عشرين ألف شخص، فلم تبلغ فتنة مثل فتنته في القتل والخوف ونشر الإشاعات. فبعد أن انتهى مفعول السحر الذي كان يفعله- حسب الأخبار- وبدأت جيوشه تهزم ويدرك الناس أنهم بشر عاديون يؤثر بهم الرصاص والسيوف هرب إلى صعدة ليحتمي بأميرها فقام بسجنه وقتله وأرسل للإمام المهدي يخبره بذلك. فانزاحت عن البلاد غمة كبيرة خيمت على جميع من فيها من سكان وزوار ويمنيين وغير يمنيين.

ثم بعد أيام بلغهم خبر اعتبره الكثير من سكان المخا وتجارها سارًّا حيث أنه بعد انتهاء فتنة المحطوري وعقد الصلح بين الإمام المهدي وقبائل

يافع قبل رمضان، طلب وزير الإمام وساعده الأيمن صالح بن علي الحريبي أن يتولى أمر بيت الفقيه ويكون عاملاً عليها، فقبل الإمام ذلك وبعد أيام أضاف له حكم المخا وسائر تهامة حتى عدن، ولم يكن صابر يعرف الحريبي أو سمع عنه إلا أن الشيخ طه أخبره بأن الإمام المهدي عندما كان حاكماً على الحجرية من مقر حكمه في قلعة المنصورة التي تعرف بالدملؤة بالصلو وهناك تعرف على الحريبي وأصبح من معاونيه وساعده عندما أعلن نفسه إماماً من القلعة وخاض حروباً قوية مع منافسيه من أقاربه وأبناء عمومته؛ حيث أعلن كل منهم نفسه إمامًا فتحالفوا ضده وحاصروه في القلعة لكنه تمكن من الهرب بواسطة الحريبي. لهذا فالإمام يثق به ثقة كبيرة.

ويعتقد الشيخ طه أن صالح بن علي الحُريبي يعود في أصوله إلى يافع ويستبعد أن تكون من حَريب في بلاد المشرق، وتذكر صابر أن هناك أسرة مشهورة في يافع بهذا الاسم، هاجر بعضهم إلى حضرموت ومناطق أخرى قد يكون بعضهم استقر في الصلو خاصة أنه يوجد في آل ملؤك جامع وضريح عبد الملك بن محمد بن أبي ميسرة أبي الوليد اليافعي وهو من أئمة اليمن الكبار عاش بين مكة وعدن والصلو في القرن الخامس الهجري أي قبل خمسة قرون من الآن(*).

وعلم صابر من الشيخ طه أن الحريبي أراد الخروج من عند الإمام خشية الدسائس والمؤامرات التي تحاك خاصة مع وجود ولد الإمام

(*) مازال الجامع موجوداً وبحال جيدة في الصلو حتى الآن ويعرف بجامع عبدالملك.

المحسن بن المهدي والوزير الشيخ أحمد بن راجح الوزير الحيمي وقام الحريبي قبل مغادرته بوضع معاونه الفقيه محسن بن علي الفقيه وزيراً آخر للإمام، وقام الإمام باستدعاء زين العابدين المنوفي الذي كان حاكمًا لبيت الفقيه وجعله وزيراً له أيضاً.. وكان صابر قد شاهد المنوفي في سوق بيت الفقيه وهو يشرف على الموازين والمكاييل والأسعار، وهذه التعيينات تثبت أن الحريبي ستكون له مطلق الصلاحيات والإجراءات في كل مدن تهامة وقراها.

بعد ثلاثة أيام وجد صابر خبرًا لدى «روجا» في المنزل بأن عمه يريده. سارع فوراً إلى منزل عمه ووجده كما هو لايزال يعاني من آثار السياط والتعذيب ومازالت جروحه لم تندمل بعد، لكن آثار التورم خفت وبدأ يتحدث بصورة أفضل حيث طلب من صابر مساعدته في تحصيل الأموال التي له عند التجار دون أن يتحدث عن التي عليه، وأخبره كذلك عن موافقته على عرض العمل وبأنه سيمنحه واحداً ونصف بالمائة مقابل أي كمية من البن يشتريها للشركة الهولندية وأن هذا هو أقصى عرض يمكن تقديمه، ولم يتفاجأ صابر من هذا فهو يعلم جشعه وحبه المال، فلا يمكن لشخص في وضعه وظروفه أن يتحدث بالعمل وتحصيل الأموال بسرعة.

وعندما وافق صابر تقديرًا لظروف عمه طلب منه الأخير أن يذهب إلى أحد الحوانيت، وأخبره بمكانه وصفة صاحبها، وأن يستلم منه خمس زكائب من البن، ثم يأتي إليه في المساء ومعه قيمة الزكائب دون تأخير. وفي مساء اليوم التالي ذهب صابر إلى منزل عمه ومعه الأموال لتسليمها

إليه بعد أن قام بأخذ الزكائب، وعندما وصل إلى منزل عمه فوجئ بمارك حاضراً رفقة عمه إلى جانب بعض التجار من أصدقاء العم الذين يعرفهم صابر، وبمجرد وصوله والسلام على الجميع بادره مارك بالسؤال عن قيمة البن وعن صحة ما قاله العم عن تلقيه نسبة مئوية مقابل جلب البضاعة، لم ينطق صابر بأية كلمة لكنه لاحظ ابتسامة تشفٍّ مريضة فوق شفتي عمه المتورمتين، فأخذ مارك يلقي عليه عبارات اللوم والأسى وكيف ساعده ووقف بجانبه وكان يظنه ولدًا صالحًا نقياً وكيف خان ثقته به وطعنه في ظهره وكيف أن تصرفه هذا قد يؤدي

إلى وضع عنقه في حبل المشنقة في بلاده بتهمة الخيانة والاختلاس ومخالفة قوانين شركة الهند الشرقية الهولندية التي لا تتهاون في هذه الجرائم مطلقاً.

وعندما لم يتحدث صابر الذي كان مطأطئ الرأس، أخذ عمه يتحدث قائلا:

- هذا ولد أخي وأنا أكثر من يعرفه وسبق له أن سرقني، ولهذا طردته. ومارك يلومني على عدم تشغيله معي ولكني أتمنى أن يكون اليوم قد عرفه وعرف مدى سوء أخلاقه وحقده على الجميع.

هز مارك رأسه موافقاً وهو يقول متحسرًا:

- للأسف الشديد.. أعتذر لك، وأنت عمه ولك اختيار العقوبة التي تناسبه.

شعر عم صابر بالفخر وهو يحاول نفخ صدره المليء بآثار السياط

وهو يقول متصنعاً آثار الطيبة والود في ملامحه قائلا:

- أنا صاحب قلب رؤوف وأحب الخير للجميع، وقراري هو طرده من العمل في الشركة ومن سائر المدينة، حيث عليه العودة إلى قريته، وتغريمه مبلغ الخمس زكائب ولأني عمه فسوف أتحمل قيمتها نيابة عنه كأولى خطوات العقوبة.

بمجرد أن نطق عم صابر بقرار العقوبة نهض مارك متجهًا إلى صابر وقام بحضنه وسط دهشة الحاضرين جميعهم وهو يقول موجهاً الكلام إلى عم صابر:

- صابر لم يسرقني، لأنه لم يأخذ مقابل البن الذي أخذه من عمه، بل تبرع بدفع المبلغ لمساعدة عمه من ماله ونحن لا نشتري البن في الوقت الحالي لأن السفينة غادرت قبل أيام، وكنت على إطلاع بعرضه لك على أن يدفع النسبة التي ستمنحه إياها للشركة من أجل مساعدتك في محنتك في حالة اشرينا منه كمية البن لكي تتجاوز ماتعرضت له من محنة، وعندما استدعيتني اليوم توقعت ماستفعله وطلبت من صابر التظاهر بالمفاجأة.

ابتسم صابر وهو يرى ملامح عمه المصدومة مما يسمع لكنه قال بضيق:

- هيا يا مارك، دعنا نخرج من هنا.

لكن مارك كان له رأي حيث قام بإخراج كيس النقود وهو يقول:

- وبهذه المناسبة سنقوم بتنفيذ العقوبة التي أمرت بها وهي أن تدفع قيمة زكائب البن نيابة عن صابر، فشكراً على البن وشكرًا على الأموال..

ثم التفت إليه محذراً:

- والآن أمام أصدقائك التجار: إذا حاولت التعرض لصابر بأي قول أو فعل فسوف تدفع الثمن غالياً وأنت تعلم ماذا نعرف عنك عندما ساعدت جواسيس المحطوري أو سنبحث عن علاقتك بحادثة مقتل عبدالله.

اصطحب مارك صابرًا إلى خارج المنزل وهما يسمعان صراخ عمه الأقرب إلى الهذيان مع الحاضرين من أصدقائه من أجل التبرير ونكران تهمة الخيانة لصالح المحطوري كما سمعا عند خروجهما من المبنى وقع أقدام بعض الحاضرين خلفهما وقد فضلوا الخروج على الاستمرار بمتابعة هذه المهزلة التي أضاعت أوقاتهم عبثًا.

وفي نفس تلك الليلة بينما كان مارك وصابر يتحدثان وبرفقتهما «مزنة» و«روجا» سمعوا أصوات طرقات قوية على الباب الخارجي وكان مارك أسرع الجميع بالنزول إلى الأسفل وبمجرد أن فتح الباب شاهد امرأة بملابس منزلية عادية بدون عباءة وهي تبكي وتستنجد به لحمايتها ولم يكن مارك مستوعباً للكلام حتى وصل صابر والفتاتان فقاما بإدخالها إلى المنزل، قامت مزنة بإحضار شال كبير تتغطى به. بعد أن هدأوا من روعها واستكان فؤادها اتضح لهم بأنها جارتهم. وبينما كان مارك وصابر يتبادلان النظرات ذات الدلالة كانت هي تحكي عن غيرة زوجها القوية ومعاناتها المستمرة بالضرب والإهانة واليوم قام بضربها بشكل بالغ وعندما استمر بضربها بالسوط أقفلت على نفسها إحدى غرف المنزل وقفزت من الشباك واستنجدت بهم.

هي المرة الأولى التي يراها صابر بها عن قرب، كانت جميلة بالفعل وتملك عينين واسعتين كليل تهامة الساحر، وشعرًا أسودَ حريريًّا لا يساوي حرير الصين أمامه شيئاً. وبينما هي مستمرة في البكاء ومنشغلة بشرح مشكلتها وحبها لزوجها ووفائها له، استمر في تأملاته سادراً هائماً، لكنه تمالك نفسه مستعيذاً بالله من الشيطان الرجيم ونهض طالباً من مارك أن يتحدث معه على انفراد في حجرة أخرى. وكان مارك لا يعلم شيئا عن العادات اليمنية أو حكم الشرع وماهي العواقب؟ وفي الحقيقة لم يكن صابر يملك أي معرفة بهذا الشأن لكن بفطرته السليمة أخبر مارك بأن إغاثة الملهوف واجبة وأن العادات والتقاليد لا تمنع مساعدتها بغرض حل مشكلتها، وقد تذكر كلام الشيخ طه الشاذلي عندما طلب منه جارهم المساعدة لحل مشاكله معها، لذا فقد أخبر مارك بأنه سيخبر الشيخ طه بالأمر عند ذهابه لصلاة الفجر، وأن كل ماعليه فعله هو تركها تنام مع الفتاتين وانتظار ما ستسفر عنه النتائج. وعند ذهابه للنوم أخذ صابر يفكر فيما سيحدث في اليوم التالي وماهي المخاطر التي قد تقع لهم. ووسط الوساوس والأفكار الشيطانية التي أخذت تراوده قرر أن ينام بعد أن أقنع نفسه بأن تلك المرأة تحب زوجها وكل ماكانت تفعله كان في منزلها هي. أما الهدايا التي كانت تبعثها فلم تكن سوى وسائل للفت نظر زوجها الكهل وتسلية من فتاة في ريعان شبابها ومحبوسة في منزلها طوال الوقت. وما يؤكد له ذلك أنها أظهرت هذا وهي في منزلهم وتتحدث عن زوجها رغم ماحدث بكل حب ووفاء.

بعد صلاة الفجر أخبر الشيخ طه بالأمر الذي طلب منه الذهاب إلى

المنزل والبقاء به حتى يأتي هو إليه بعد أن يتحدث هو بالأمر مع زوجها، وبعد ساعات أقبل الشيخ طه وبرفقته رجل تجاوز الخمسين من عمره يملك جسداً نحيلاً جداً وكان قصيراً وملامحه متجهمة. وبعد الجلوس تحدث الشيخ طه عن العلاقات الزوجية بمقدمة ضافية وذكر أن الله سبحانه وتعالى يقول في كتابه: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ هذه الآية تبين أن الإصلاح بين الزوجين أمر واجب لا يجوز تجاوزه فإذا كان الإصلاح بين الناس مطلوباً شرعاً فإن الإصلاح بين الزوجين أكثر طلباً. وفي الحديث الحسن عند الإمام الترمذي عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال:(إياكم وسوء ذات البين فإنها الحالقة)، ولذلك يجب على المسلم أن ينهض للإصلاح بين الناس بعامة وبين الزوجين بخاصة لما في الإصلاح من ألفة ومحبة واتفاق، ولأن الله سبحانه وتعالى أمر عباده أن يصلحوا بينهما صلحًا، كما في سورة النساء من قوله تعالى: ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾. ثم شكر مارك وصابر على دورهما بمساعدة زوجة جارهم ونجدتها وسترها.

وكانت المفاجأة بالنسبة إليهما حينما تحدث الشيخ طه أنه حين ذهب إلى زوجها للتحدث معه لم يكن يعلم بخروجها من النافذة وكان يظنها في الحجرة كما تعودت دائماً، أدرك صابر ومارك أن الزوج كان يشعر بالغيرة منهما لذلك فهو متجهم ولا يتحدث إلا قليلاً وقد ترك للشيخ طه كامل

الصلاحيات لحل المشكلة، ثم طلب الشيخ طه أن يتحدث مع الزوجة من وراء حجاب بعيداً عن الزوج الذي بقي مع مارك وصابر في نفس الحجرة دون أن ينطق أحدهم بأي كلمة واكتفى كل منهما بتبادل النظرات بينهما بينما ظل الرجل متجهم الوجه وينظر للأسفل حتى عاد الشيخ طه وهو يشير إلى الزوج أن يخرج لاصطحاب زوجته والعودة بها إلى المنزل مذكرًا إياه بما تحدث معه في حانوته عن الدين والعشرة الحسنة والصبر عليها، وأنه تحدث معها بخصوصه ووعدته بحسن العشرة.

وفيما بعد تحدث الشيخ طه مع صابر أن الرجل كان يشعر بالعار مما فعلت زوجته حينما هربت بملابس المنزل واستنجدت بهم، ناهيك عن غيرته البالغة نظراً لفارق السن بينهما، لكن غيرته الأكبر كانت منه هو ومارك وأنه يشك بوجود علاقة ما فيما بينها وبين أحدكما لكن الشيخ طه أقنعه باستحالة هذا الشيء وأشاد بأخلاقهما.ومع تشديده على نطق الكلمات تأكد لصابر أن الشيخ طه كان يخفي أمورًا عنه، لكن صابر فهم الرسالة على كل حال، فانقطعت علاقته بتلك المرأة للأبد، وكذلك فعل مارك.

* * *

وطن البن..

بعد مرور ثلاثة أشهر أصبح واضحاً تأثير حاكم تهامة الجديد صالح بن علي الحريبي الذي مع الصلاحيات الممنوحة له أصبح يلقب بملك اليمن الأسفل بل إن الزوار من تجار العرب والأوروبيين كانوا يعتقدون بأنه هو ملك اليمن بما يملكه من صلاحيات لعقد الصفقات والاتفاقيات واتخاذ القرارات. ورغم إقامته بشكل شبه دائم في مدينة بيت الفقيه - أكبر سوق للبن في اليمن وبالتالي في العالم كله - إلا أنه يشرف على كل المناطق والأسواق بشكل دائم، وصار يملك جيشًا رسميًا تعداده ثلاثة آلاف جندي لأول مرة في اليمن منذ عقود طويلة، لدرجة أن الإمام نفسه طلب منه إحضار بعض العبيد من زيلع في بلاد الحبشة لحماية نفسه في قصور الحكم في المواهب وهو ماحدث بالفعل، كما قام الحريبي بشق الكثير من الطرق وحفر الآبار والقنوات في عموم تهامة بما فيها المخا وكذلك وصلت أعماله إلى عدن وهو ما افتقده الناس لقرون كثيرة. ومع تنظيم الأمور نقصت أسعار البن قليلا عن الموسم الماضي نتيجة لزيادة الانتاج مع وفرة الأمطار وهو الشيء الذي أفرح الجميع على حد سواء، فثبات الأسعار هو مؤشر اطمئنان للجميع بطبيعة الحال.

وفي أحد الأيام تحدث مارك مع صابر عن عمه الذي ظل يرسل إليه الوساطات ويطلب منه حل الخلافات معهما، وكان صابر متفاجئاً بأن عمه ذهب إلى مارك رغم أنه هو من فضحه لدى أصدقائه ولم يأتِ إليه مباشرة وهو ابن أخيه الذي كان سيقبل بكل طلباته لما تعوده من احترام له يفرضه دينه وتربيته، لكن الحقد في قلب عمه أعماه وجعله يتنازل للغريب كي يحل خلافاً صنعه هو مع ابن أخيه. ورغم ثقة صابر بأن عمه يخبئ شيئا ما وراء تصرفه إلا أنه وافق مباشرة وسيوافق بغض النظر عن أي اعتبارات فكيف لو كان الوسيط أستاذه مارك الذي وعده بأنه لن يتخلى عنه وما عليه سوى الاتكال عليه. وبعد مرور أسبوع حصل الاجتماع في منزل مارك جمعهما بعمه الذي كان كل همه هو استرضاء مارك حيث كان ملحًا في التبرير لنفسه بحجج شتى: مرة بسبب عدم استماع صابر لأوامره ومرة بسبب والد صابر الذي كان يحرض أسرته ضده، كما أسرف في سرد علاقته بجواسيس المحطوري وبأنه لم يكن يعلم هويتهم وكل ما كان يريده منهم هو شراء ما يملكونه من البن.

لم يتحدث مارك أو صابر طوال ساعة كاملة من كلامه الممل وإدخال المواضيع ببعضها واكتفيا بتبادل النظرات ذات المغزى بينهما أو كتم الضحكات حينما يتحدث عن كفاحه وأن والد صابر لم يترك سوى عشر زكائب من البن فقط وقد دفع لأم صابر أضعافها، ثم يعود لسرد إعجابه بمارك وأنه منبهر به كشخص وتاجر وصديق. ثم يأخذ في سرد مميزات شخصية مارك الذي كان يدرك مغزى هذه السرديات العبثية التي خيل لهما أنها لن تنتهي، فكلما شاهد لا مبالاة مارك بكلامه أخذ يتحدث أكثر

بتلعثم وسرعة وهو يحك أرنبة أنفه تارة أو يفرك كفيه ببعضهما.

أما صابر فلم يكن يهمه الأمر مطلقا فقد وصل إلى مرحلة من التشبع تساوت معه كل المشاعر تجاه عمه الذي لم يدرك بعد أن أي ضرر يسببه له إنما يسببه لنفسه ويؤول إليه في النهاية لكن الحاقد ينظر بمرآة نفسه فيرى نفسه هو وحين يوجه سهام حقده فإنما يوجهها لنفسه.

مع استمرار عم صابر بالحديث فقد مارك السيطرة على مشاعره المتحفظة فقاطعه يطلب منه سبب مجيئه لكنه تلعثم وأخذ يستجمع أفكاره ويعيد تكرار بعض الكلمات ومع نظرات مارك الحازمة قال:

- أريد حل المشاكل مع صابر.

ثار مارك وقتها وأخذ يصرخ في وجهه قائلًا:

- منذ ساعتين وأنت تتحدث عن كل شيء إلا عن صابر، أنت حتى لم توجه له أي كلمة، فعن أي حلول تبحث ومع من..؟!

اكتفى صابر بالابتسام كدلالة على السخرية وفقدان الأمل، فبادر عمه قائلاً باستسلام موجهًا حديثه إلى مارك:

- أنا أفوضك.. اتخذ القرار الذي يناسب الجميع.

نهض صابر حينها وهو يقول للمرة الأولى:

- لا أريد منه أي شيء، عليه أن يتركني فقط.

برقت عينا عمه وهو يبتسم بجشع، لكن مارك تجاهل صابراً تماماً وهو يوجه حديثه إلى عمه مستفسراً:

- أنا مستعد لحل الأمر وسأضمن موافقة صابر، لكن من سيضمنك

أنت؟

- أضمن نفسي..

أخذ مارك بالضحك بصوت عالٍ وهو يقول:

- أنت مراوغ، وقدومك هنا هو لإعطاء نفسك فرصة بعدما عرف التجار بقصصك الملتوية، لكني مع هذا موافق.

بدت اللهفة على محيا عم صابر وأخذ يهز رأسه بجشع دلالة على الموافقة فقال مارك:

- قراري هو أن تعطي صابراً نصف ما تملك، وهذا حقه الذي استوليت عليه بعد وفاة والده وألا تتعرض له أو تحاول أذيته.

تبدلت ملامح عم صابر في لحظة واحدة عشرات المرات بين غضب وذهول وصدمة وخوف وإحباط وأخذت تتبدل فيما بينها بصورة تظهر ما يعتمل في قرارة نفسه بهذه المشاعر وغيرها، فليس أسوأ من الشخص اللئيم حينما يضع نفسه في ورطة ويمنح هو بيده مصيره لغيره. وبينما هو يستعرض مشاعره الداخلية ويظهر منها الكثير على وجهه كان مارك يستدير إلى صابر مبتسمًا الذي نهض وهو يهز رأسه رافضاً قرار مارك لكنه لا يستطيع أن يرفض طلبه. وقتها بدأ عم صابر بالحديث ومارك لايزال ينظر إلى صابر فقال بتردد:

- أنا موافق على قرارك ولن أتعرض لصابر بأي أذى.

ثم وضع يده على خنجره المثبت في حزامه وأخرجه وهو يصرخ:

- لكني سوف أقتلك أنت!!

رفع الخنجر إلى أعلى رأسه وهوى به على ظهر مارك الذي لا يزال على وقفته بينما صابر يشاهد كل ما يجري بوضوح فأسرع بإخراج مسدسه بحركة طبيعية لا إرادية، لكنه في لحظة خاطفة وتفكير سريع وبدلًا من إطلاق النار على عمه قام برمي المسدس كاملا باتجاه عمه حتى ارتطم بوجهه في نفس اللحظة التي تحرك بها مارك يمينًا، فقام عمه برمي الخنجر الذي أصاب صابر إصابة طفيفة بجانب الترقوة فسقط صابر على الأرض ليجري مارك لاحتضانه وهو يخشى من أن تكون الطعنة قاتلة. استغل عم صابر ما حدث، فانطلق يجري إلى الخارج لا يلوي على شيء بينما كان كل مايهم مارك هو سلامة صابر الذي كان يتأوه بشدة ويصيح من شدة الألم، وأخذ مارك يتأكد من عدم تسمم الخنجر مع تحول مكان الطعنة إلى اللون الأسود حول الكتف الذي يبدو أنه تضرر بشكل كبير ولن ينجو من البتر وهو يلوم صابراً على تصرفه هذا، لكن صابراً قال له:

- لم أعرف أبي إلا قليلاً في سنوات عمري الأولى في طفولتي، وليس لي أخ ولم أكن أعرف معنى الأبوة أو الأخوة حتى تعرفت عليك إلى جانب آخرين، فأنت أخي رغم أن كل ما بيننا مختلف، ديناً وشكلاً ولونًا ووطناً..

هرعت روجا لإحضار بعض الأعشاب والأدوية التي يملكها مارك وكذلك الماء وبعض الأقمشة النظيفة، وأصبحوا ثلاثتهم حوله يعتنون به، أما مزنة فقد بعثها مارك لإحضار الطبيب بشكل مستعجل.

- نحن بشر في الأخير يا عزيزي، لكن ما كان عليك أن تتصرف هكذا لإنقاذي. كان عليك أن تتركني فهذا أبسط الحلول، فأنا غريب عن هذه الأرض في الأخير.

قالها مارك بصدق. أما صابر فقد سكت لوهلة وهو يحاول استجماع قوته ثم قال:

- نحن هنا نقدم الغرباء على أنفسنا، لأن الغريب ضيف، والضيف لدينا صاحب دار.

أخذ يستجمع أنفاسه من شدة الألم ثم واصل حديثه قائلًا:

- من عاداتنا اليمنية أن نرد الجميل بأحسن منه، وأن نحمي الضيوف، فما بالك وأنت صاحب دار هنا.. بالإضافة لحبك لهذه الأرض؛ فإن وطن البن هذا يسعنا جميعًا لو كنا نتمتع بنفس كرمه وخيره، وكل من سكن أرضنا فهو منها وأهلها هم أهله وأنت نعم الساكن والأهل يا.. أخي.

«طابت ليالي الوصل في شط المخا
غرباءُ جئنا نرتجي ثمر الرخا
إن الضيوف بأرضنا هم سادة
والطيب الوافي يصير لنا أخا.. »

* * *

الفهرس

المكتب الهولندي في المخا.....

«نيوتن» والبن اليمني.....

طريق البن العالمي.....

فرار حول موانئ البن.....

المسير إلى بيت الفقيه .....

على متن السفينة «بيرين».....

نبوءة اليهودي «يائير».....

وطن البن .....